723

روايات عبير

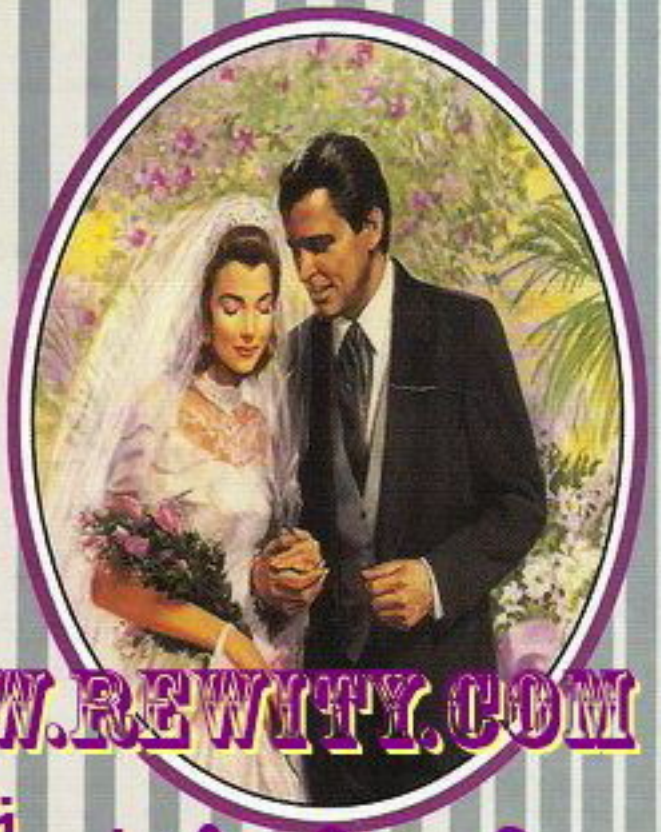

WWW.REWITY.COM

مرمورية

Edwina Peake

الكشْفُ عن الحقيقة

الأصليّة

روايات عبير

«الكشْفُ عن الحَقيقة»

بلا لقاءٍ أو رؤية عرفتْ «فانيسا» أنَّ جدها فظُّ المشاعر غليظُ القلب... طَردَ ابنَه (أباها الراحل) لأنه أحبَّ من لم يخترْها له -كما أخبرها والدها- فامتلأ صدرُها عليه حقدًا وتولّدتْ الرغبة في الانتقام منه، وانطلقتْ بهويّة ليست هويتها.. وكان الانتقام مُرادها.

وفي الطريق تُصادفُ «كال غرين» ضيفَ جَدّها الذي يوصّلها إلى بيت جَدّها، وفي قلبها منه شيء، وتتعرف إلى جَدّها.. وترى أن الواقع غير ما أخبرها به والدُها. والسرْد مخالف للأفعال.. وتكتشف ما يؤلمها؛ فتحيا في ليل من الكآبة، ولكنَّ في الأفق تباشيرَ شروق شمس تَتهلّلُ بها أساريرُها.. فماذا يحدث في طيّات هذه الرواية؟

ثمن النسخة

لبنان	3000 ل.
سوريا	100 ل.
الأردن	1.5 دينار
السعودية	10 ريال
الكويت	750 فلس
الإمارات	10 دراهم
البحرين	1 دينار
قطر	10 ريال
مسقط	1 ريال
مصر	6 جنيه
المغرب	30 درهم
ليبيا	5 دينار
تونس	2.5 دينار
اليمن	300 ريال

ISBN 995338058 -9
9 789953 380582

العنوان الأصلي لهذه الرواية
Kigfisher Morning

تأليف
Edwina Peake

الغلاف بريشة الفنان
Patrice Gordon

WWW.REWITY.COM
مـــرمـــوريـــة

الكشف عن الحقيقة

(723)

الناشر
المركز الدولي للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

الإدارة العامة والتوزيع
تليفون: **00 961 9 212 666** – فاكس: **00 961 9 212 665**
ص.ب **374** جونيه – لبنان
Email: info@inter-press.org www.inter-press.org

وكلاء التوزيع
دار ميوزيك – دار البشير – دار إي بي سي

جميع الحقوق محفوظة للناشر

يمنع منعًا باتًا نقل أي جزء أو قسم من هذا الكتاب وبأية وسيلة مرئية أو صوتية... إلخ
إلا بعد الحصول على موافقة خطية من الناشر

- 5 -

- 1 -

أسقطت «فانيسا» مكعب السكر في فنجان القهوة وراحت تراقب فقاقيع الهواء التي أحدثها. لا، لم يكن هذا خيالا، فالشابّان اللذان يركبان الدراجة النارية كانا يراقبانها باهتمام واضح. إنها معتادة ذلك التصرف. لكن الأمر يختلف هذه المرة، فنظراتهما أشعرتها بالانزعاج. المقهى كان صغيرا. وخلف الآلة الحاسبة جلست فتاتان تقهقهان وتتهامسان. وإلى إحدى الطاولات في الزاوية جلس رجل يحتسي فنجان قهوة، وإلى جواره كان الشابان. أنهيا لتوهما تناول بعض الساندويتشات. نظرت «فانيسا» إلى الرجل الذي كان مستغرقا في النظر إلى الصحيفة الموجودة إلى جواره أكثر من أي شيء آخر. ماذا يمكن أن تقول إذا ما ذهبت إليه لتحادثه؟ من الأكيد أنه سيعتبرها مجنونة، ولكنها كانت قلقة، فما تبقى من الطريق موحش ومنعزل، هذا ما تؤكده خريطتها ويؤكده الطريق الذي قطعته قبل قليل. هناك ما لا يقل عن خمسين كيلومترا للوصول إلى «دينستون هاوس». خمسون كيلومترًا من القيادة فوق أراض جبلية منعزلة قبل أن تصل إلى مقصدها! التفت إليها الرجل لبرهة وكأنه أحس بنظراتها، ثم نظر باتجاه الشابين وأخيرا إلى صحيفته. خفق قلب «فانيسا» بشدة. ليس هناك أمل يرتجى منه. لعله اعتقد أنها أحبت تصرف الشابين اللذين أخذا الآن يصدران أصواتا وكأنهما يتحدثان إلى قطة، وهما يبتسمان، لقد أصبح طعم القهوة كريها. نهضت فجأة. حان وقت الذهاب، وكلما بكرت كان أفضل.

رأسها مصاب بالصداع منذ أن قطعت «بيرث»، والطريق حتى «دينستون هاوس» -المنطقة المجهولة- طويل وصعب، ومن الأفضل لها أن تسرع في الوصول إلى هناك. حملت سترتها وحقيبة يدها وغادرت المقهى دون أن تلتفت إلى الخلف. في الخارج، كان الطقس باردا وبوادر غيوم ممطرة في السماء. التلال المرتفعة كانت تبدو منعزلة في ضوء المساء الخافت، وكل شيء هادئ. في موقف المقهى، شاهدت الدراجتين الناريتين وسيارة «جاجوار» أنيقة وسيارتها «الكورتينا»

الرمادية. جلست في مقعدها ورمت السترة وحقيبة اليد في المقعد المجاور... وأدارت المحرك. فكرت في أنها ستكون سالة إذا ما أقلعت وغادرت المكان قبل أن يخرج الشابان. وما إن تحركت باتجاه الطريق حتى شاهدت باب المقهى يفتح، ورأت الشابين يقفان للحظة على العتبة فأعطيا ظلا أسود انعكس على ضوء المقهى الساطع. ما زالا يضحكان. وبحركة غريزية أغلقت أبواب سيارتها من الداخل ثم ضغطت بكامل قوتها على دواسة البنزين.. فاستجابت «الكورتينا» على الفور. نزلت الطريق المنحدر بأسرع ما يمكنها. ربما كانت السرعة غير كافية فالدراجات النارية قوية وسريعة جدًا على الرغم من مظهرها المضحك. انطلقت الدراجتان الناريتان خلفها، وأصابها شعور غريب بأن ما يحدث قد يكون عقابا لها على الخطة المقصودة التي جاءت لأجلها، لكن الآن ليس وقت محاسبة الذات، المهم أن تبقى في المقدمة، متقدمة على الشابين، وكل شيء سيكون على ما يرام. الطريق الأسفلتي يمتد كشريط ضيق متعرج، و«فانيسا» تتابعه بترقب وسرعة، ويداها الرطبتان ممسكتان بعجلة القيادة. لم تكن إنسانة عصبية، وهي تعرف كيف تسيطر على نفسها. لكن شيئا ما كان في نظرات الشابين، اللذين لم يتجاوزا العشرين من العمر، جعلها تشعر بالخوف. فكرة خاطفة ألحت على ذهنها عن الرجل الآخر الذي كان في المقهى. لقد كان جذابا بشكل قاس وغامض و... وفجأة سمعت هدير صوت محركي الدراجتين خلفها تماما، كان المنعطف قد حجبهما عنها. الآن أصبحا مرئيين... ويقتربان. شابان يبحثان عن المشاكل، يرتديان سترتين جلديتين سوداوين على سروالين من الجينز. أصبحا أقرب. يا الله أين السيارة الأخرى، أو أية سيارة أخرى؟! مر الأول مسرعا فاهتزت السيارة بعنف. كان أسلوبهما فعالا. تمهل الأول حتى وصلت السيارة إلى منعطف ضيق فخفف سرعته بحيث اضطرت «فانيسا» بدورها إلى تخفيف السرعة، في حين كان الثاني خلفها يمنعها من محاولة الرجوع. أحست «فانيسا» برغبة جامحة في أن تطلق لسيارتها العنان، لكنها أدركت أن ذلك لن يفيد. كانت الدراجة النارية ضخمة بحيث لا تؤثر فيها السيارة، والطريق لا يسمح بالتجاوز. وسرعان ما حل الصمت عندما سكتت المحركات.

تلفتت حولها في محاولة يائسة للبحث عن سلاح. عبثت أصابعها المحمومة في حقيبة يدها، فاصطدمت بجسم دائري بارد... إنه عطر بخاخ، القارورة صغيرة، لكنها أفضل من لا شيء. كم من الوقت سيمر قبل أن يحطما الأبواب؟ اقترب الشاب الأول من النافذة ومسح الزجاج وهو يبتسم. كانت أسنانه متآكلة ووجهه مصابًا بحب الشباب... وفي عينيه رغبات تتجاوز سنوات عمره.

- أرجوكما، اتركاني لحالي. كلمات لا معنى لها في هذا الموقف، أطلقتها كأنها ابتهال.

عندئذٍ، ومن حيث لم تتوقع، سمعت صوت آلة تنبيه سيارة طويلا وعاليا يأتي من الوراء. التفتت، قفز قلبها من شدة الارتياح. في الوقت المناسب تماما. كانت سيارة «الجاجوار» التي تخص الرجل الغامض في المقهى الصغير، والسائق يطلق آلة التنبيه؛ لأن دراجة الشاب الأول تغلق الطريق أمامه. وفي اللحظة التي توجه فيها الشاب لإزاحة دراجته فتحت «فانيسا» الباب بسرعة. لم يكن الشاب يريد أي تدخل، بل يريد أن يفسح الطريق للسيارة «الجاجوار». وكان أمام «فانيسا» ثوان معدودة. وبينما كانت تحاول الركض متجاهلة الشاب الثاني وذراعيه الممدودتين، ترجل سائق «الجاجوار» من سيارته وأغلق الباب خلفه، وحاولت «فانيسا» أن تهدئ قدميها المرتجفتين عندما شاهدته متقدما نحو سيارتها. قالت له:

- أرجوك ساعدني... هذان الشابان...

- أعرف، لقد شاهدتهما. جاء صوته عميقا. ربما كان صوتا عذبا في الأوقات العادية، لكنه الآن غاضب ومنفعل. هذا ما لفت انتباه «فانيسا» للوهلة الأولى وهي تنظر إليه كوسيلة إنقاذ. وسرعان ما أدركت شيئا أعاد الخوف إلى نفسها. إنه شخص واحد وهما اثنان وقويان، ولا يبدو عليه أنه قوي، على الرغم من أنه طويل القامة وعريض المنكبين ويمشي واثق الخطوة. لقد لاحظت هذه الأمور كلها عندما دخل المقهى وهي في منتصف وجبتها، وقبل أن يبدأ الشابان تحرشاتهما بدا عليه أنه من النوع الذي يفضل تجنب المشاكل لكنه لن يفعل ذلك الآن، أم هل يفعل؟ هل يتركها وحيدة ويتابع رحلته؟ وأخيرا تكلم. أزاح

www.rewity.com

الشاب الأول دراجته بعيدا عن الطريق واضعا إياها قرب سيارة «فانيسا» بحيث تستطيع «الجاجوار» أن تمر. قال وهو يبتسم:

– هيا أيها الفتيان، اذهبا من هنا. وقف الشاب الأول، وهو القائد على ما يبدو، في مكانه مباعدا بين ساقيه وواضعا يديه في خصره في وقفة تحدٍ.

– اسمع، لقد أزحت دراجتي عن الطريق فلماذا لا تتابع رحلتك، فنحن لا نتعرض لك؟

– كلا، لكن هذه الشابة ترفض اعتراضكما لطريقها، وأنا شخصيًا لا ألومها على ذلك... لكنه لم يستطع إكمال جملته. استدارت «فانيسا» نصف التفاتة؛ لأن الشاب الثاني كان حتى ذلك الحين صامتا، ولذلك شاهدته أولاً فصرخت:

– انتبه...

ولكن تحذيرها لم يكن ضروريًا. كان الشاب يحمل زجاجة في يده، ولو أنها أصابت هدفها لفقد الرجل الغامض وعيه. لحسن الحظ خابت الضربة. وراقبت «فانيسا» بإعجاب مشوب بالدهشة كيف أن الرجل استطاع أن يقبض على معصم الشاب ويلويها بشدة مع انحناءة خفيفة من جسده هو. كان مدهشا أن تراقب المعركة؛ لأنها جرت كما لو كانت في التصوير السينمائي البطيء، وكانت تشاهد وجه الشاب وقد علته الدهشة، إذ سقطت الزجاجة من يده المتشنجة ثم تبعها هو في السقوط.. هنا تدخل الشاب الأول وتقدم مهاجما. وقالت «فانيسا» لنفسها: «هذه هي النهاية». والتفتت لتبحث عن عصا أو أي شيء للمساعدة. حدث كل شيء بأسرع مما تتصور حيث وصل الشاب الأول مسرعا نحو الرجل الغامض رافعا قبضة يده للوصول إلى وجه خصمه وواضعا قوته كلها في هجومه، وشاهدته «فانيسا» وهو يقفز من فوق الرجل الذي انحنى قليلاً إلى الخلف ثم عاد ليجلس على صدر الشاب بسهولة وسرعة. أدركت «فانيسا» أنه يتقن رياضة الجودو، وعرفت الفرق بين مشاهدة اللعبة على شاشة التليفزيون وبين ما جرى الآن... إنه الفرق بين الرياضة والواقع. انتهى كل شيء. نفض سائق «الجاجوار» الغبار عن سترته، وهو ينظر باشمئزاز إلى الجسدين المرميين اللذين يحاولان الوقوف على أقدامهما، ثم خاطب «فانيسا» قائلاً:

– اصعدي إلى سيارتك وتابعي السير. سأتبعك أنا بسيارتي. هيا بنا بسرعة. لم يكن هناك مجال للكلام. أطاعته دون أن تتفوه بكلمة وأدارت محرك السيارة بيدها المرتعشة، ثم هدأت قليلاً عندما أدركت أنه هو الذي يجب أن يرتجف إذا ما كان هناك سبب لذلك، وليس هي. على بعد ثمانية كيلومترات، وبالقرب من مفترق طرق، أعطى سائق السيارة إشارة ضوئية طالبا منها التوقف، ففعلت وترجلت من سيارتها. الشيء الأول الذي يجب أن تفعله هو أن تشكره. اقترب منها، ودون أن يفسح لها المجال سألها بلهجة آمرة:

– ما اسمك؟ فماتت كلمات الشكر على لسانها فورا.

– «فانيسا». بدأت كلامها، لكنها لم تستطع أن تتذكر اسمها الثاني فقالت بصعوبة:

– آه... «سميث». قال بنغمة ساخرة وهو يرفع أحد حاجبيه:

– يبدو أنك تجدين صعوبة في تذكر اسمك الثاني! لمعت عيناها بالغضب لبرهة وقالت:

– إنني مضطربة... كانت تجربة مخيفة. وافق قائلاً:

– صحيح. حسنا يا آنسة «سميث» –مشددًا على كلمة «سميث»– أنا لا أنصحك بالسفر وحيدة في المستقبل... على الأقل في مثل هذه الأماكن. أنت تعرفين المتاعب التي كنت ستواجهينها لو أن أحدًا لم يصل في الوقت المناسب. ووجدت أن عرفانها له بالجميل بدأ يزول بسبب طبعه الحاد، لكنها تمسكت بالجملة الأخيرة التي نطق بها لتنطلق منها وتقول:

– نعم، وأنا شاكرة لك ما فعلته من أجلي.

– عرفت في المقهى ما ينويان فعله، وتبعتكم طول الطريق مع أنني لم أكن أقصد هذه الناحية أساسا.

آه، لقد بدأ يترك تأثيرا غريبا فيها. كان من النادر أن تعجز عن إيجاد الكلمات المناسبة، ومن النادر أيضًا أن تجد رجلاً مغلقا إلى هذا الحد، كأنه لم يكن يراها على الإطلاق. كان طويل القامة بحيث سبب لها إزعاجًا، خاصة أنها طويلة أيضا، ولم تتعود أن تنظر إلى الأعلى لتخاطب الآخرين، لكنها معه اضطرت إلى

ذلك فقد كان أطول منها، عريض المنكبين، أسمر الوجه، وذا عينين لامعتين بشكل غير عادي حتى خيل إليها أنهما تسخران منها.. لكن هذا غير معقول! وأنهى كلامه قائلاً:

– فإما أن تحضري معك رفيقة طريق أو أن تتعلمي بعض الكاراتيه. أجابت برد حاسم بدا لها جافا:

– سأتسلم وظيفتي على بعد خمسين كيلومترًا، ومن الصعب في هذه الحالة أن أحضر معي مربيتي، أليس كذلك؟ أما بالنسبة إلى الكاراتيه، فقد كنت أعتبر الاسكتلنديين محبين للضيوف... لكني يجب أن أعيد التفكير في هذا يا سيدي. عليه أن يتقبل رأيها في الاسكتلنديين كما يشاء. بدأت أعصاب «فانيسا» تتوتر، وكلما أسرعت في مغادرة المكان، كان ذلك أفضل لها. فقال لها:

– «كال غرين» يا آنسة «سميث». وشدد على نطق الاسم الذي يؤكد كونه اسكتلنديًا.

– أليس من الأفضل لنا أن نواصل السير. واستدارت نحو سيارتها وهي تقول:

– والشابان...؟ أجاب مبتسما:

– سوف يستمران في البحث عن مفاتيح المحرك لمدة غير قصيرة بين الأشجار. ليس هناك ما يضحك، ليست سوى ابتسامة كشفت عن أسنان لامعة. ثم تابع قائلاً:

– وحتى لو وجداها فسيندمان إذا ما حاولا اللحاق بنا. ولم يكن متبجحا، كان يقول الحقيقة. لم تستطع «فانيسا» أن تمنع الكلمات:

– من الجميل أن تكون واثقا إلى هذا الحد بنفسك. ابتسمت أيضا وهي تدرك تأثير ابتسامتها في الرجال. إنها الابتسامة التي تسحر، ولكنها لم تسحره هو.

– هذا صحيح –ونظر إليها بكبرياء– إنك ذات مزاج عصبي يا آنسة، أليس كذلك؟ ربما كنت تفضلين أن أتركهما فيصيباني بالزجاجة؟

– لم أقصد ذلك. وبدأت تشعر بالارتباك. من يعتقد نفسه هذا الوحش

المتعجرف؟

– قصدت... لكنها لم تكن متأكدة مما تقصده الآن. وأنهت كلامها بنبرة حزن:

– يبدو أنك تعتقد أنها غلطتي. نظر إليها مجددا. تعبير غريب جدًا مر للحظة على ذلك الوجه الأسمر الجذاب:

– ألم يعلمك أحد بأن تغضّي طرفك الساحر عندما تكونين في بعض الأماكن؟

– ماذا؟ قالت في نفسها «من الأكيد أنه لم يفكر...» كيف تجرؤ على هذا القول؟ وماذا تقصد من ورائه؟ وجهها في العادة أبيض اللون وناعم بشكل يتناقض مع شعرها الأسود، أما الآن فقد احمر خداها والتمعت عيناها البنيتان الغامقتان بشرارات الغضب.

– دعكِ من هذه الأقوال. كان يتكلم بهدوء، وكأنه يخاطب طفلاً ثم أضاف:

– لا تقولي لي إنك لم تعطهما نظرة تشجيع حتى ولو غير مقصودة. ورفع يده مسترضيا عندما قال العبارة الأخيرة:

– لكنك لا تستطيعين تجنب الأمر، أليس كذلك؟ فأنت مدركة لجمالك، أنت كاذبة أو مغفلة إذا أنكرت ذلك، وكان يجب أن تعرفي أنك ستسببين المتاعب فور... صرخت بانفعال:

– لن أقف هنا لحظة أخرى لأستمع إلى أقوالك يا سيد «غرين». ثم استدارت عائدة إلى سيارتها وهي تقول:

– لست أدري من هو الأسوأ فعلاً. وداعا. خيم صمت ثقيل. لم ينبس ببنت شفة ولم يحاول إيقافها. ترى ما الذي كانت تتوقعه؟ نظرت إلى مرآة سيارتها تراقب الطريق خلفها وهي تنحدر مسرعة نحو هدفها. رأته يدخل السيارة بسهولة على الرغم من ساقيه الطويلتين. لم يكن ينظر إليها، بل لم يكن مهتمًا قط. زمت «فانيسا» شفتيها بغيظ. لقد كان شخصية بغيضة مع أنه أنقذها من وضع لا تحسد عليه. ألقت نظرة أخرى قبل أن تحجب الطريق سيارته عنها. شاهدت بصيص احتراق سيجارة من خلف الزجاج، انقبض قلبها، هل ينتظر فعلاً حتى يتأكد من عدم وجود أية مشاكل؟ هذا ممكن. لكن مع مواصلة السير،

www.rewity.com

طغت أفكار أخرى ملحة على ذهن «فانيسا».. أفكار حول المكان الذي تقصده والأسباب التي دفعتها إلى القدوم.

حدث شيء غريب جدًا قبل بضعة كيلومترات من «دينستون هاوس». توقفت للحظة حتى تراجع خريطتها وتتأكد المنعطف الحاد الذي برز إلى اليمين، والذي يقود إلى طريق يبدو وكأنه ينتهي إلى جبل منعزل موحش. عليها أن تتأكد قبل أن تتابع سيرها، لئلا تجد نفسها في طريق لا يمكنها العودة منه إلا بعد كيلومترات عديدة.. خاصة أن الظلام أصبح حالكا، والغيوم الداكنة تطبق على الأرض منذرة بالمطر الغزير. إنه طريقها بالفعل. لقد أشرت على الخريطة بعناية في مكتب المحامي بعد تلقي التعليمات منه. لا يمكن أن تكون مخطئة، فالمنعطف الحاد هو الدرب الذي يجب أن تسلكه. أعادت «فانيسا» الخريطة إلى مكانها وتأكدت خلو الطريق من السير ثم انعطفت يمينا. ومن بعيد، لاحت بشكل غير واضح سيارة تنهب الأرض على الطريق نفسه الذي تركته «فانيسا» قبل لحظات... وتساءلت «فانيسا» عما إذا كانت هذه السيارة هي سيارة «الجاجوار». من الممكن ذلك، لكن الأمر مستبعد. ثم انشغلت عن التفكير في ذلك «الفارس الأرعن» وهي تتجاوز منعطفا حادا ضيقا برز أمامها فجأة... وما هي إلا دقيقة حتى كانت «الجاجوار» وراءها. لم يكن أمام «فانيسا» مجال كي تفسح له الطريق لتجاوزها، فالدرب المتعرج الضيق كان يجعلها حذرة وبطيئة. هل هو مستمر في ملاحقتها؟ ربما يريد أن يقول لها شيئا. عند المنعطف التالي، وكان هناك متسع للتجاوز، أعطته إشارة كي يعبر. لكنه توقف، ولم يعد أمامها إلا التوقف. أنزلت زجاج شباك سيارتها. قالت في نفسها «ترى ماذا يريد؟» قال لها:

– هل أنت في الطريق الصحيح؟ كان صوته عميقا وهادئا، وكأن شيئا لم يحصل بينهما.

– نعم. اعتقدت أنك تريد سؤالي عن شيء ما. أنا متوجهة إلى مكان يدعى «دينستون هاوس»... توقفت عن الكلام عندما لاحظت تعابير وجهه التي تنم عن الدهشة والاستغراب. قالت في نفسها: «ماذا حدث؟ ماذا قلت له؟».

– أنت ذاهبة إلى «دينستون»؟ –تساءل بدهشة– لا تقولي لي إنك الآنسة التي تريد تنظيم المكتبة هناك! يا إلهي! وفعلت الكلمتان الأخيرتان فعلهما. فتحت «فانيسا» باب سيارتها ودفعته بقوة. ابتعد الرجل عن طريقها وهو يساعدها على إمساك الباب. ترجلت ووقفت أمامه متحدية...

– لقد سمعت ورأيت ما فيه الكفاية. أنا لا أعرف ماذا ومن تكون، لكن المكان الذي أقصده لا يعنيك أبدا... وإن كنت أنقذتني من الشابين.. لم يتركها تكمل كلامها. كان ينظر إليها وبسمة استغراب مشوبة بالدهشة على شفتيه قاطعها بصوت صخري كملامح وجهه:

– هدئي من روعك، فذلك لن يفيدك معي، ولن ينفعك أيضا..

– أيها الـ...

– أرأيت ماذا قصدت؟ العينان تخرجان الشرر غضبا، والوجنتان محتقنتان.. هدئي نفسك أيتها القطة المتوحشة وأنصتي. أحست «فانيسا» بأن صدرها يكاد ينفجر وهي تحاول ضبط نفسها أمام هذا المخلوق المجنون والمتعجرف. كم تتمنى أن تصفع ذلك الوجه القاسي! لم يعرف كم كانت قريبة من الصفعة..

– هذا أفضل. لي كامل الحق في سؤالك عما إذا كنت ذاهبة إلى «دينستون»، فأنا أعيش هناك حاليًا. نظرت «فانيسا» إليه للحظات. وقالت في نفسها «هذا غير معقول؟ هذا غير معقول!» وقالت بصوت أكثر هدوءا:

– المنطقة التي أقصدها ملك شخص يدعى السيد «ماكلين»، وحسب علمي هو يقيم.. أجاب بنعومة:

– إنه يقيم وحيدا، باستثناء الخدم ومدبري البيت. وأنا حاليًا.. ضيفه. لم تلحظ «فانيسا» في ارتباكها تردد الرجل قبل الكلمة الأخيرة. من أين جاءت كل هذه التعقيدات؟ نظرت إليه. عليها أن تكون شديدة الحذر، فأشياء كثيرة أخذت تحدث فجأة. يجب أن تهدأ فذلك سيعطيها وقتا للتفكير، لكنها أدركت أنها لا تملك متسعا من الوقت للتأمل والتفكير.

– لقد فهمت. وحاولت أن تضع على شفتيها ابتسامة كبيرة، لكنها آثرت الابتسامة مؤقتا. وعندما جاءت كلماته أحست أن مخيلتها هي التي أوحت إليها بذلك.

www.rewity.com

– استغربت كثيرا في البداية؛ لأن اسم الموظفة الجديدة حسب ما أعتقد هو –وفرك مقدمة جبينه بإصبعيه وهو يحاول التذكر– أجل اسمها الآنسة «كولينز». وقطع كلامه مبتسمًا وكأنه يقول: «والآن ما هي الحقيقة؟». فأعطتها الابتسامة الأخيرة وقتا هي بأمس الحاجة إليه للاستعداد والإجابة.

– هذا صحيح –قالت موافقة– عندما أخبرتك أن اسمي هو «سعيث»، كنت ببساطة غير راغبة بإعطاء اسمي الحقيقي لشخص غريب. رفع أحد حاجبيه وقال:

– بالتأكيد.. بالتأكيد. وأضاف بصوت ناعم:

– أنا لا ألومك، فهناك نوعيات غريبة من الناس أخذت تتردد على هذه المنطقة مؤخرا. لكنها كانت متأكدة أنه لم يصدقها. الشيء الوحيد الذي فكرت فيه هو: هل من الضروري أن يصدقها؟ أتاحت «فانيسا» لنفسها بعض الراحة كي تقلب المشكلة من كافة جوانبها، عندما كانت تتبعه بسيارتها على الطريق الذي أخذ يضيق ويتعرج أكثر. قاد سيارته «الجاجوار» بروية آخذا بعين الاعتبار عدم معرفتها المسبقة بالمكان. وكانت قيادته هادئة وماهرة بحيث تبعته «فانيسا» بثقة وارتياح. إذن، هو ضيف في «دينستون هاوس»، لكن إلى متى؟ أحست بضيق. وعاد إلى ذاكرتها الحوار الذي جرى في مكتب السيد «مورتون»، واتضحت لها الأمور بشكل لم تكن مستعدة له بعد. هي تعرف أن عليها التفكير في الأمر.. لكن ليس الآن، ليس الآن. وألحت عليها صورة السيد «مورتون» القلق وهو يقول بصوت متوتر:

– لا أستطيع أن أوافق على الخداع بأي شكل من الأشكال!

– لست أسألك الموافقة على أي شيء. كانت «فانيسا» قادرة حتى على تذكر رنة صوتها في ذلك الوقت: هادئة وعملية ومصممة على إزاحة أي اعتراض؛ لأنها حسمت أمرها سلفا.

– لكن الأمر يبدو لي.. –ورفع السيد «مورتون» مجموعة أوراق– وكأنك ذاهبة إلى هناك لانتحال شخصية أخرى.

– لقد شرحت لك الوضع. وأعطته ابتسامة طويلة. لم يكن قادرا على مقاومة مثل هذه الابتسامة وسمعته يسعل بارتباك، فأضافت:

– المسألة لن تستغرق طويلاً –مجرد أسبوع– ثم أخبره بالحقيقة. إنها أشبه بـ.. لعبة. ورددت في سرها: «وليسامحني الله على هذه الكذبة» لكن يجب ألا يعرف أحد أسبابها الحقيقية، الرغبة في رؤية ذلك الرجل العجوز الذي دمر حياة والدها.. إنه جدها «آندرو ماكلين» الذي أنفق الألوف حتى الآن من أجل العثور على الولد الوحيد لابنه المتوفى حديثًا. أعادتها إلى الحاضر سيارة «الجاجوار» التي أخذت تخفف سيرها، فضغطت على الفرامل بسرعة. مر من أمامهما قطيع من الماشية متجها إلى أحد التلال. عبرت الخراف المثقلة بالصوف متباطئة عبر الطريق العام، فأسرع الرجل بسيارته وتبعته «فانيسا» دون تردد. نظرت إلى مرآة سيارتها لحظة. كانت عيناها سوداوين وواسعتين. تساءلت في نفسها: «هل أخطأت من الأساس في المجيء إلى هنا؟ هل كان والدي سيوافق على ما أفعل؟» لن تستطيع أن تعرف أبدا. لقد كان السيد «مورتون» قلقا للغاية من خطتها. وارتكب خطأ أساسيًا عندما أخبرها بأنهم طلبوا منه إيجاد شخص مناسب –رجلاً كان أو امرأة– لترتيب مكتبة «دينستون هاوس».

– ها قد وجدتها. أجابت «فانيسا» وموجة عارمة من الارتياح تجتاح جسمها:

– ألا ترى؟ أنا سأذهب. ستقول لهم إنك وجدت شخصا مناسبا، و... قاطعها السيد «مورتون» بجفاء:

– وماذا سيحدث عندما تكشفين شخصيتك الحقيقية؟ كيف سأبدو أنا آنذاك... المتآمر الشريك؟ وقفت «فانيسا» بحزم وقالت:

– كلا، حذرتك أساسا، وأنت تعرف جدية كلامي من أنك إذا أبلغت جدي... –ووقفت عند الكلمة الأخيرة باشمئزاز– إذا أبلغته بالعثور عليّ، فسوف أرحل على الفور، وتأكد أنك لن تجدني أبدًا. شعر المحامي العجوز بالحيرة، وأحست هي بالأسف لوضعه. لكن الرغبة في الانتقام كانت أكثر قوة... وأدركت أنها ربحت... أصبحت الآن «فانيسا كولينز»، مع قصة حياة كاملة أعدتها لنفسها إذا ما سألها أحد. ستذهب لرؤية المكان حيث ولد أبوها وأمضى طفولته الأولى، وسترى الرجل الذي سمعت عنه الكثير من الكلمات

القاسية. ستجعله يحبها ويتعلق بها، بعد ذلك ستخبره بشخصيتها الحقيقية وتراقب تعابير وجهه... ثم ستغادر منزله ولا تعود إليه أبدا. عندئذٍ ستعرف راحة البال لأول مرة بعد سنتين كاملتين من العذاب. فمنذ سنتين أخبرها والدها –وهو على فراش الموت– قصة الرجل القاسي الظالم الذي طرده؛ لأنه أراد أن يتزوج الفتاة التي أحب وليست تلك التي اختارها هو له. والآن، مات الأب والأم معا. أمها ماتت مكسورة القلب بعد قليل من وفاة زوجها، وجدها يتحمل المسؤولية كاملة... شاهدت الرجل الذي يقود السيارة أمامها وهو يشير إليها للاتجاه يمينا داخل طريق محفوف بالأشجار الكثيفة، فتبعته. هذا الشخص استطاع الإيقاع بها عندما سألها عن اسمها، فخلال ثوان معدودة نسيت الشخصية التي يجب أن تتلبسها، وهذا ما يجب ألا يتكرر أبدا. عليها أن تراقب «كال غرين» هذا الرجل الأسمر القوي الذي أعطاها انطباعا بأنه يستطيع قراءة أفكارها أيضا. كان الطريق ضيقا، والأشجار العالية الكثيفة تظلل كل شيء بظلام طاغ لا يتغير. ماذا ستجد هنا؟ إنها لا تملك صورا فوتوغرافية يمكن أن تعطيها انطباعا عن المكان، فقد أتلف أبوها كل ما يمكن أن يذكره بالماضي. وهي لا تعرف كيف سيكون مظهر جدها، وإن كانت الصورة الخيالية التي تحملها عنه لاتسر القلب. عما قريب ستعرف كل شيء، وسينتهي زمن الخيالات والتوقعات. عبرت بوابة حديدية واسعة بيضاء اللون. القسم الأول من الطريق مرصوف بالحجارة، ثم يأتي قسم معبد بحبيبات صغيرة من الحصى. أعطت سيارة «كال غرين» تنبيها متقطعا، فاعتقدت «فانيسا» أنه يشير إلى إنسان ما، لكنها شاهدت مجموعة من الأرانب الصغيرة تفر من وسط الممر. انفرجت شفتاها قليلاً. على الأقل هو لا يحب دهس الحيوانات، وهذه نقطة صغيرة لصالحه. إنها لم تعجب به، وهذا الشعور كان متبادلا، فتصرفاته معها عكست هذا الأمر. لقد كان فظا، هكذا تخيلت. لم يكن من المناسب أن يكشف هويتها ويفسد خطتها، عليها أن تعامله بحذر بالغ خلال الأسابيع القليلة المقبلة، وبعد ذلك لن يعود بذات الأهمية أبدا. وأخيرا شاهدت البيت فامتلأ قلبها بالحزن العميق. إذن هذا هو بيت أبيها. كان جميلاً جدًّا بحجارته

الرمادية البارزة ونوافذه الواسعة ورواقه ذي الأعمدة الرخامية. عدة درجات تؤدي إلى الباب حيث الظلام الخفيف يغطي المدخل المسقوف. وعندما وقفا أمام الباب أنير البيت بضوء ساطع هو مزيج من الأبيض والأزرق. أوقفت «فانيسا» محرك سيارتها. ولبرهة من الزمن أحست برغبة عارمة في الهرب.

– هيا بنا إلى الداخل. وفتح الرجل باب سيارتها معيدا إياها إلى أرض الواقع:

– ستمطر خلال دقائق. أين حقائبك؟

– في الصندوق. سحبت المفاتيح من محرك السيارة وناولته إياها. أخذها وتوجه إلى الخلف وفتح الصندوق وحمل حقيبتيها. كانت «فانيسا» محتارة بين الرغبة في شكره وبين الانزعاج من الطريقة الباردة التي تناول بها المفاتيح، كأنه فقد صبره معها وأصبح غير مهتم بتبرير تصرفاته. حملت سترتها وحقيبة يدها، وقررت أن تترك الأمور على علاتها، على الأقل حاليًا. قادها إلى المدخل عبر سلم حجري، ثم فتح بابا ضخما.

– أهلاً بك في «دينستون هاوس» يا آنسة «كولينز». كان من الصعب عليها أن تعرف معنى رنة صوته، لكنها أكيد خالية من الترحيب الفعلي.

– شكرا لك يا سيد «غرين». قالت ذلك مبتسمة، بدأ التخفي الآن، فلقد فات أوان التراجع، وعليها أن تستمر في خطتها مهما كلفها الأمر. هزت رأسها وكأنها تطرد التعب عن وجهها وسألت:

– ماذا عليّ أن أفعل الآن؟

– سأرشدك إلى غرفتك أولاً فترتبين أغراضك، ثم نتناول العشاء.

– ولكن أليس من الأفضل لقاء السيد «ماكلين» قبل أن أصعد إلى غرفتي؟ رفع حاجبه الأسود قائلاً:

– ألم أقل لك إنه خارج البيت الليلة؟ سيعود ظهر غد على ما أعتقد، وحتى ذلك الوقت سأهتم أنا بوجودك. أحست بنبرة سخرية في صوته. هذا خيالها بالتأكيد، لكنها لم تكن مرتاحة. وتساءلت بنعومة:

– وماذا كان سيحدث لي لو لم أصادفك في الطريق؟

www.rewity.com

– المشرفة على البيت وزوجها السيد «بانكس» كانا سيهتمان بك. رفع حقيبتيها وسار نحو السلالم المنتصبة في منتصف القاعة الكبيرة. وصلا إلى ممر تغطيه النوافذ الزجاجية الملونة، وعلى الجانبين ثريات من الذهب والعنبر. وبينما هي سائرة إلى جانب الرجل، أضاء البرق النوافذ فأحست بالخوف والغربة. لعلها ارتجفت، إذ لاحظت نظرته إليها قبل أن تهدأ.

– هل أنت خائفة من العواصف؟ سألها بعطف.. لو أن هذا العطف حقيقي! لكنه بدا مسرورا أكثر منه قلقا. أجابت:

– لا، أبدا... وأنت؟

– أنا أقدر البرق تقديرا عاليا، فقد شاهدت ما يمكن أن يفعله، لكنني لا أخافه.

– من الصعب عليك أن تعترف حتى لو كنت تخاف. ثم قالت «فانيسا» بنعومة وطراوة:

– أقصد، هل تخاف من أي شيء؟

كانا قد وصلا إلى أعلى الدرج. وعلى الجانبين ممران واسعان غطيت أرضيتهما بالبُسط الثمينة. وقف «كال غرين» ووضع الحقيبتين على الأرض بحركة بطيئة مقصودة. قال بصوت منفعل:

– علينا أن نجد أسلوبا للتعايش إذا ما كنت ستقضين وقتا هنا. لو كنت في مكانك لراقبت لساني جيدا، فهو سليط جدًا بالنسبة إلى آنسة رقيقة مثلك.

أحست وكأنه صفعها. وبصعوبة كبيرة استطاعت أن تجيبه بهدوء:

– هل تهددني؟ بدت عليه الدهشة وقال:

– أبدا... إني أبدي ملاحظة فقط. هل أبدو كمن يهدد امرأة؟ كانت السخرية واضحة في صوته.

– لا أعرف ما فيه الكفاية حتى أحكم على ذلك. ردت على هجومه بسرعة وقالت:

– في الواقع لا أريد الحكم عليك، لكنك تستطيع أن تكون فظا حتى بدون أن تحاول. فهذا ما فعلته فعلا بعد إنقاذي. فقد حاولت أن تقول إنني شجعت الشابين على معاكستي. قاطعها بحدة:

– لم أفعل ذلك، فقط اقترحت عليك أن تغضي عينيك الساحرتين عندما تكونين في مكان ما.. ردت عليه بسرعة:

– وكأنني كنت أحاول استمالتهما، أو أي شيء من هذا القبيل. كان موقفا غريبا أن تكون هناك. هو وهي فقط في ذلك البيت الضخم. تناقش الرجل الغريب وتحاول أن تنتصر عليه ولو لمرة واحدة. تنفست بعمق لتستعيد رباطة جأشها. ضحك وقال:

– ألم تحاولي استمالتهما؟ فاندفعت «فانيسا» إليه رافعة يدها إلى ذلك الوجه البارد:

– كيف تجرؤ.. ولم تستطع أن تكمل. أمسكها وجمدها دون جهد يذكر. نظر إليها بعينين لامعتين بينما كفّاه تمسكان ذراعيها بقسوة وبرودة وهو يقول:

– أنت قطة متوحشة بالفعل، ثم قال بهدوء:

– ما هذه الطباع التي تحملينها؟ أنت تدركين أنني قادر على ترويضك... صرخت بصوت مخنوق:

– اتركني!

– سأتركك عندما أكون جاهزا. أريدك أن تستمعي إليّ لدقيقة، فأنت بين يدي الآن.. وحاولت «فانيسا» أن تخلص نفسها، لكن قبضتيه كانتا قويتين للغاية. قالت وهي تتنفس بصعوبة:

– إنك تؤذيني. كانت دون حيلة على الإطلاق. كم تكرهه الآن! كيف يتجرأ على ذلك؟

– إذن اهدئي قليلاً. لن أدعك تصفعينني، وأعرف أنك ستفعلين ذلك إذا ما أطلقت ذراعيك. وإلى أن تهدأ أعصابك، سأظل ممسكا بك.

– إذا لم تتركني فلسوف أركلك بقدمي. وكانت تعني ذلك تماما. أجابها بصوت ناعم وصلب:

– جربي ذلك. أريدك أن تجربي ولو لمرة واحدة، وأعدك بأنك بعدها لن تثوري بسرعة أبدا. أصابتها كلماته الباردة بما يشبه الجمود، وأحست برعشة تسري في أوصالها. ماذا يمكن أن يفعل؟ وتذكرت كيف استطاع أن يواجه الشابين

www.rewity.com

اللذين هاجماها... فشعرت بالخوف. ودون أن تعي خففت من توتر جسمها. فكرت في أنه من الأفضل عدم مقاومته كي لا تعطيه المجال لممارسة بعض ضربات الجودو ضدها.

– هذا أفضل. لقد توقفت عن المقاومة. خفف «كال غرين» قبضتيه عن ذراعيها وأصبح وجهه أقل قسوة.

– تذكري دائما أنك لا تستطيعين مقاتلتي، ولذلك لا تجربي! قالت بصوت ضعيف:

– أنت مقزز. ألن تطلق سراحي؟

– هل تريدين ضربي؟

– كلا. اختفى الضغط. دلكت «فانيسا» ذراعيها حيث كانت قبضتاه، ونظرت إلى حقيبتيها. خانتها قواها في حملهما. ولسبب غير معروف شعرت بأن ذراعيها ضعيفتان كما لو أن عضلاتها ترفض العمل. سألت بجزع:

– ماذا فعلت بي؟ إنني لا أستطيع...

– لم أفعل شيئا. مادمت ضعيفة إلى هذا الحد، أقترح عليك تعلم بعض وسائل الدفاع عن النفس. وهكذا إذا ما هاجمك أحد المتشردين في المستقبل، تستطيعين القضاء عليه. قالت بسخرية واضحة:

– سأتذكر أن ألتحق بإحدى مدارس تعليم الجودو عندما أعود إلى «لندن». نظر إليها بحزم:

– لا حاجة إلى الانتظار. يمكنك المباشرة الآن. سأكون مسرورا عندما أدربك شخصيًا. وابتسم. ولم تعرف «فانيسا» كيف تتقبل كلماته وابتسامته. نظرت إليه ببرود وقالت:

– هل أذهب إلى غرفتي الآن؟ أريد إبدال ملابسي.

– بالتأكيد. من هنا الطريق. حمل حقيبتيها وسار أمامها. وفيما هي تتبعه، أخذت تفكر في العرض الذي قدمه لها. لا يمكن أن تسمح له بتلقينها أي شيء.. فجأة خطرت على بالها الفكرة التالية: سيكون الأمر مثيرا للاهتمام بالفعل.. لكنها سرعان ما طردتها.

- 2 -

أصيبت «فانيسا» بصدمة قوية عندما شاهدت الغرفة المخصصة لها، لكنها أخفت مشاعرها حتى غادر «كال غرين» المكان كي لا تعطيه فرصة الشماتة من دهشتها البالغة. كانت الغرفة جميلة جدًا، عالية السقف وواسعة تماما، وتطلّ على مقدمة المنزل من خلال نافذتين عريضتين تكشفان الحدائق والسهول التي قطعتها «فانيسا» قبل قليل. اتجهت إلى إحدى النافذتين لتتأمل المناظر البديعة الممتدة. وقفت صامتة أمام الستائر المخملية الخضراء. الليل أصبح أكثر حلكة، والعواصف الرعدية تزمجر من بعيد... انهمر المطر غزيرا بحيث أحست أن اخضرار الأرض انعكس على الضوء الخافت في الخارج. تركت «فانيسا» النافذة لتتأمل أثاث الغرفة المصنوع كله من خشب السنديان المصقول. كان هناك مقعدان وثيران وسريرها المفروش بغطاء مزين بالورد. وفي إحدى الزوايا استقرت ساعة حائط أثرية وإلى جانبها طاولة عليها زهرية... وكلها قديمة وغالية الثمن. ووجدت حتى جهاز تليفزيون احتل الزاوية المجاورة للنافذة. أثاث الغرفة يدل على ذوق راق واهتمام ملحوظ. فجأة شعرت ببعض الذنب، لكنها تخلصت منه بسرعة. من غير المناسب أن تشعر بذلك ولم يمض على وجودها في المنزل أكثر من خمس دقائق. لقد اتخذت قرارها نهائيًا، وعليها أن تستمر في مهمتها... من أجل أبيها. غطت وجهها براحتيها عندما أحست بألم حاد. إنه الألم الناشئ عن إدراكها بأنها مهما فعلت، فإن كل شيء قد فات الآن. تنفست بعمق واتجهت إلى مرآة تغطي خزانة بالقرب من السرير. فتحت الخزانة، فإذا بها أمام حمام متكامل. لا شك في أن «كال غرين» تعمّد عدم الإشارة إلى الحمام من أجل دفعها إلى سؤاله وبالتالي إحراجها، لكنها أسقطت هذه الفكرة من رأسها فورا. كان الحمام بمثل جمال غرفة النوم. المرايا تغطي معظم الجدران، ماعدا النافذة التي تطل على غابات كثيفة. تلفتت «فانيسا» حولها بارتياح. كم كان جميلا لو أنها فقط..! يجب ألا تفكر بهذه الطريقة، خرجت من الحمام

بحزم وأغلقت الباب خلفها. سوف ترتب ملابسها وتستحم ثم تتهيأ للعشاء. خيّم جو من الهدوء والروعة على الغرفة عندما أضاءت الأنوار الموزعة بشكل مناسب. أغلقت «فانيسا» الستائر، وفتحت حقيبتيها وبدأت عملية الترتيب. عندما نزلت إلى القاعة الكبرى لم تسمع أي صوت سوى حركات رقّاص ساعة الحائط. أضيئت ثريا واحدة فأعطت نورا برتقاليًا انعكس على الجدران والمقاعد الخشبية الثقيلة. كانت العاصفة الرعدية قد انتهت، ولم تتبق سوى بعض حبيبات من المطر تضرب النوافذ بين حين وآخر؛ لذلك تشجعت وتوجهت إلى الباب الخارجي وفتحته. ألقت نظرة متأملة على الحديقة المشبعة بالمطر. أحست بقشعريرة خفيفة عندما جاءها صوت من الخلف:

– لا أعتقد أنك تفكرين في نزهة في مثل هذا الوقت؟ استدارت ببطء. عرفت صاحب الصوت على الفور. لم تسمع في حياتها صوتا يشبه صوته الهادئ العميق مع تلك الرنة الساخرة التي تبدو واضحة عندما يخاطبها... وهذا ما كان يزعجها، لكنها لن تظهر ذلك. أجابت:

– كنت أتأمل فقط. عادت إليها صورة شجارهما الأخير. ما زالت تحس بالوخز في ذراعيها حيث أمسكها بقبضتيه القويتين. عليها أن تكون حذرة تماما مع السيد «كال غرين»، الآن وكل أوان. كان قد غيّر ملابسه إلى سترة مريحة مع سروال مناسب وقميص مفتوح عند الصدر. وأدركت عند رؤيته –على الرغم من شعورها نحوه– بأنه جذّاب للغاية، فالسترة أظهرت منكبيه العريضين، واستغربت كيف جاءها الانطباع الأول في المقهى بأنه من النوع الذي يهرب من المشاكل. كان يبدو واثقا بنفسه تماما. نظرت «فانيسا» إلى نفسها، لقد بدلت هي أيضا ملابسها إلى زي أزرق اللون كان يشعرها بالارتياح دومًا. كانت ممشوقة القامة بغير امتلاء، وقد أبرز اللون الأزرق نضارة بشرتها الوردية. أرادت أن تبدو في أحسن صورة كي تستعيد ثقتها بنفسها، خاصة أمام ذلك الرجل الذي ما لبث أن سألها:

– هل أنت جائعة؟ السيدة «بانكس» تريد أن تعرف.

– أجل، لكنني لا أريد أن أشغلها... قاطعها قائلا:

– لن تشغليها، فالعشاء جاهز. أجابت بنعومة واضحة مع أنها لم تكن تريد ذلك:

– قل لي، هل تترك أحدا يكمل كلامه؟ أجاب ضاحكا:

– ليس هناك وقت للكلام الفارغ، إذا كنت تقصدين ذلك. فأنا أريد أن أطرق لبّ الموضوع مباشرة. وافقت بهزة خفيفة من رأسها:

– فهمت ماذا تعني، وعليّ أن أتذكر ذلك. لكني سأرى كيف تكون ردة فعلك عندما يقاطعك أحد ما. رفع «كال» حاجبيه مستغربا:

– لا شك في أن الجوع يجعلك عصبية المزاج. هيا بنا إلى غرفة الطعام، فستشعرين بالراحة بعد الأكل. ولمس ذراعها خفيفا وهو يدلها على الطريق. أبعدت «فانيسا» ذراعها بهدوء وقالت:

– شكرا لك، فأنا لست طفلة. سأتبعك إلى المائدة إذا ما تقدمت الطريق. أغلق الباب خلفه بسرعة:

– حسنا، من هنا الطريق. سار أمامها متجها إلى يمين القاعة، وعبر عدة أبواب مغلقة حتى وصل إلى غرفة طعام واسعة فيها طاولة تكفي لحوالي خمسة وعشرين شخصا. غاص قلبها بين ضلوعها: هنا ستتناول عشاءها، بالنسبة إليها كان يكفي طعام خفيف في غرفتها. لكن الأسوأ على الطريق، فعلى أحد طرفي الطاولة شاهدت كرسيين فقط.

– كرسيان؟! ونظرت إليه. ابتسم وقال:

– نعم، كرسيان. وأضاف متابعا:

– لم أكن لأسمح لك بتناول الطعام وحيدة.. أليس كذلك؟ أجابت بلهجة غير مبالية:

– ألا تستطيع فعلا؟ كنت أعتقد أن الأمر سيروق لك!

– أنا مضيفك الآن وحتى عودة السيد «ماكلين». تنبّهت لرنة سخرية خفيفة في صوته العميق. تنفست بعمق وردّت ببرود واضح:

– أي كرسيّ لي؟ سحب الكرسي القريب منها وقال:

– تفضلي واجلسي. وما إن استقر بهما المكان حتى دخلت امرأة قصيرة القامة

ذات شعر أشيب، ترتدي فستانا أسود اللون، وهي تدفع عربة الطعام أمامها. حدقت إلى «فانيسا» قبل أن تخاطب «كال»:

– هذا هو الحساء. من الأفضل أن تتناوله ساخنا.

– إنني أعرف ذلك. ابتسم لها بعذوبة أدهشت «فانيسا»، ثم قال:

– هذه «فانيسا كولينز» التي ستشرف على ترتيب المكتبة. هزت السيدة «بانكس» رأسها وعلى شفتيها ظلال ابتسامة:

– حسنا جدًا. لقد مللت من الكتب التي تملأ المكان. حدقت مرة أخرى إلى «فانيسا» قبل أن تضع الصحون على المائدة ثم تغادر الغرفة. ولاحظت «فانيسا» أن لهجتها عامية واضحة. كان الحساء المصنوع من عصير البندورة (الطماطم) طيب الطعم للغاية. انتظرها «كال» حتى بدأت قبل أن يتناول ملعقته:

– إن كلامها أقسى من أفعالها. قال وكأنه لاحظ استغراب «فانيسا»:

– إنها لم تقصد الملل من الكتب بل من عدم ترتيبها.

– بالتأكيد... بالتأكيد. ورفعت حاجبيها بدهشة مصطنعة فلم يكن وحده قادرا على افتعال الاستغراب.

– أنا لم أتصور عكس ذلك. وانحنت مجددا نحو الحساء. تناولت «فانيسا» قطعة من الخبز المحمص الذي أحضرته السيدة «بانكس» مع الحساء. كان الخبز طازجا وساخنا، والرائحة الشهية تنبعث منه. وأدركت كم هي جائعة، وقررت في نفسها ألا تدع «كال غرين» يفسد عليها وجبتها مهما قال أو فعل. في الحقيقة كان «كال» منشغلاً بنفسه بحيث لم يرفع نظره إليها. استطاعت أن تراقب بحذر وجهه وهو منحن نحو الحساء، وقد انعكس ضوء الشمعدان الناري على شعره. هناك شيء مؤثر في ذلك الوجه. ولم تستطع «فانيسا» أن تفسر لماذا لم تره قويًا من قبل. لعل النظرة الأولى خادعة دائما، وهذا بالفعل ما حدث. فالطريقة التي تعامل بها مع الشابين تؤكد قوته. وفجأة خطر على بالها شيء جعلها تضطرب. إنه لم يكتف بعدم الخوف منهما بل كان يستمتع بالقتال معهما. عادت إلى صحن الحساء لتخفي اضطرابها، إذ تذكرت ما حدث لها معه في الممر العلوي. أين فرصتها في التغلب على رجل مثله؟ لقد

هددها بالفعل عندما حذرته من أنها ستركله بقوة. لعله كان على حق. وشعرت بشيء يرتعش داخل جسمها... شيء من الحقيقة، مع شعور آخر لم تستطع تحديده جعل قلبها يخفق بسرعة. ومهما يحدث الآن فقد حذرها سلفا. عليها ألا تحاول التورط معه أبدا. ومع أنها وصلت إلى هذه القناعة، إلا أن سؤالا آخر ألح عليها: هل سيكون الأمر صعبا؟

– وهذه غرفة زجاجية خاصة للنباتات. كان «كال غرين» يريها أنحاء المنزل. لم تجد في تصرفاته ما يمكن أن يعطيها مجالاً للشكوى. رددت الغرفة صدى صوتيهما وهما يدخلان فيها. كان الجو دافئا ورطبا. شاهدت العديد من النباتات الغريبة الموضوعة في أحواض فخارية مختلفة الأحجام، وكذلك كرمة عنب كبيرة تتسلق الحائط وتمتد على امتداد مساحة السقف الزجاجي. نظرت إلى أعلى فلمحت عنقودا من العنب يختبئ تحت الأوراق الخضراء. فقالت بصوت خافت:

– إنه رائع. وافقها قائلاً:

– رائع جدًا. كنت متأكدا من أن المكان سيعجبك. سخرية خفيفة في صوته، لكنها شعرت بها على أي حال. يا له من رجل كريه! نظرت إليه. عليها أن تحافظ على هدوئها؛ لأنها إذا اضطربت فسوف... قالت بنعومة:

– أتمنى أن أرى المكتبة، ألن تقودني إليها؟ كان العشاء ممتازا على الرغم من بطء الخدمة. وقبل أن يتناولا القهوة في الصالون الكبير أصر «كال» على أن يأخذها في جولة داخل البيت.

– بالتأكيد المكتبة هي خطوتنا المقبلة. شاهدا معا الصالون الكبير والمطبخ الفسيح، والعديد من الغرف الصغيرة... إحداها تستعمل كمكتب عمل وأخرى تضم آلة كاتبة وأوراقا مختلفة. منعها «كال» بأدب من البقاء طويلا في هاتين الغرفتين، فحبست في نفسها عدة أسئلة ستطرحها في وقت لاحق. انبعث هواء حار عندما فتح باب غرفة النباتات وخرجا منها إلى الممر. سمعته يغلق الباب خلفه ثم يقول:

– سنتجه شمالا عند آخر الممر، غريب كيف يحس الإنسان تجاه شخص

لا يحبه؟ كان خلفها تماما، أحست بنخسات في ظهرها وكأنها تتوقع منه أن يهاجمها. ثم قفزت وهي تصرخ عندما أحست بلمسة على ظهرها. أخذ يضحك:

– هل أفزعتك؟ أنت ذاهبة في الاتجاه الخاطئ. رجاء من هنا. تجاوزت وهو يمسك بذراعها ليدلها على الطريق. استدارت بخضوع. قالت لنفسها: «صرت أضطرب كهرة صغيرة كلما كان قريبا مني. يجب أن أوقف هذه المهزلة وأسيطر على نفسي... وإلا سيعرف الحقيقة» فتح أحد الأبواب. دخلت إلى المكتبة ونظرت إلى كل اتجاه. أحست بقلبها يغرق من شدة التقزُّز. ماذا توقعت هنا، مكتبة منظمة حيث الكتب تحتل رفوفا جميلة؟ الأمر ليس كذلك في هذا البيت. مئات ومئات من الكتب المبعثرة في كل اتجاه، والتي تصل الأرض بالسقف بفوضى مرعبة.

– هذه هي المكتبة فماذا كنت تتوقعين؟ كان يراقبها، ولاحظت في عينيه اللامعتين شعاعا من السخرية والتشفي. هزت «فانيسا» رأسها باستسلام واعترفت:

– كنت أعتقد... الواقع أنها أكبر قليلا مما تصورت. بدت ابتسامة خبيثة على شفتيه:

– الحقيقة أنها أكبر بكثير. على كل حال يبدو أنك قادرة على التعامل معها، لكنك محتاجة إلى ملابس قديمة لأن بعض الكتب مغطى بالغبار منذ سنوات. كان هناك نوع من التشفي في نبرته. نظرت إليه بحدة. إنه يستغل قرارها بعدم الانجرار إلى مواجهة معه كي يثير أعصابها، وهو يدرك تماما أن تصرفاته تجعل الأمور أسوأ... ومع ذلك بلعت ريقها بصمت، ثم أجابته بثقة:

– سوف أبدأ غدا، أؤكد لك أن بعض الغبار لن يزعجني أبدا. ابتسمت وهي تنظر إليه من أسفل إلى أعلى، وتتصوره غارقا في غبار مئات الكتب. سيبدو مثيرا للضحك... لكنها لم تجرؤ على ذلك.

– حسنا جدًا –رفع أحد حاجبيه وتابع قائلاً– هيا بنا، سأريك القبو الآن ثم نتناول القهوة. يجب ألا نترك السيدة «بانكس» تنتظر أكثر.

– القبو؟ هل يعتقد أنها تريد رؤية الفحم أو مواد التموين؟ وأمسكت ضحكة كادت تفلت منها.

– صدقيني، سيعجبك المكان جدًا. هيا بنا من هنا. تقع السلالم المؤدية إلى القبو في الجهة الخلفية من المنزل. وكانت «فانيسا» تشعر بالضياع طيلة جولتها في البيت الكبير... فهذا بيت أبيها... هنا ولد وترعرع ولعب...

– سأسير في المقدمة. فالسلالم ضيقة وشديدة الانحدار. هل ترين طريقك؟

– نعم، شكرا لك. الجدران مطلية بلون أبيض. والسلالم حجرية مغطاة ببساط سميك بحيث لا تكاد تسمع وقع خطواتهما. سارت «فانيسا» خلف «كال» حتى وصلا إلى ممر تُضيئه أنوار خفيفة شاحبة، وتطل عليه عدة أبواب كلها مغلقة. تلفتت حولها بسرعة عندما خطرت في ذهنها فكرة أنه قد يحتجزها في القبو. الفكرة غير معقولة بالتأكيد، لكن مع مفاجآت مثل هذا الرجل كل شيء محتمل.

– من هنا. هذا ما أردت أن أريك إياه. فتح «كال» الباب البني الواقع إلى الشمال. وترددت «فانيسا» في الدخول. لكنها عندما فعلت أصيبت بدهشة شاملة، إذ ما إن أضاء الغرفة حتى شاهدت شيئا لم تكن تتوقعه قط، ولم تجد إزاءه سوى الدهشة. وجدت نفسها في غرفة رياضة واسعة مزودة بالحبال والقضبان الحديدية وأحصنة القفز وأدوات رفع الأثقال. وفي إحدى الزوايا دراجة ثابتة للتمارين البدنية. استدارت «فانيسا» نحو «كال» وقد زالت من نفسها للحظات كل العداوة تجاهه، وقالت:

– إنها رائعة جدًا.

– السيد «ماكلين» رياضي مداوم. يأتي إلى هنا مرتين أو ثلاث مرات أسبوعيًا. تقدم «كال» نحو فراش إسفنجي في أحد جوانب الغرفة وقال:

– هذا فراش لرياضة الجودو. السيد «ماكلين» يجيد هذه اللعبة أيضا. نظرت إليه وتساءلت:

– هل أنت مدربه؟ هز رأسه نافيا وقال:

– كلا. أنا لم أدربه. لكننا نتمرن معًا. إنه في حالة ممتازة بالنسبة إلى سنه.

«فانيسا» تعرف كم يبلغ جدها من العمر. عرفت ذلك من أبيها. إنه في السادسة والستين. لكن من المفروض أن تجهل ذلك، وقد تكشف هويتها الحقيقية إذا لم تكن حذرة في مثل هذه الأمور.

– كنت أعتقد أن السيد «ماكلين» عجوز جدًّا. نقلت نظرها بين الفراش وبين «كال»، ولاحظت الحدة في نبرته عندما أجابها:

– إنه في منتصف الستينيّات على ما أعتقد، وهذا لا يعني أنه عجوز جدًّا. لماذا نظر إليها بهذا الشكل؟ لقد بدأت تشعر بعدم الارتياح. هل هو شعور المجرم بأنه سينكشف بين لحظة وأخرى؟ وغيرت «فانيسا» مجرى الحديث لإخفاء اضطرابها فقالت:

– الآن فهمت عرضك بتدريبي... فكل شيء موجود هنا! لكنها ندمت على كلامها لأنها كانت تحاول نزع تلك الفكرة من رأسها.

– أما زلت تتذكرين العرض؟ هل تريدين الدرس الأول الآن؟ تجاوزت الأمور الحد. حاولت «فانيسا» أن تبتسم بصعوبة وهي تقول:

– بالتأكيد لا.. فأنا لا أتوقع.. قاطعها بهدوء:

– خائفة؟

– لقد شاهدتك خلال قتال حقيقي، وهذا يكفي. لربما شطّت بك حماستك بعيدا. أقصد، لا أريدك أن تشعر بالذنب إذا ما حدث... إن كسرت ذراعي مثلاً. ابتسم برقة وهدوء وقال:

– أؤكد لك أنني سأكون حذرا جدًّا.

– أنا متأكدة من حرصك، لكنني لا أريد الآن. استدارت «فانيسا» متجهة نحو دراجة التمرين. فوجئت بـ«كال» يمسك بذراعها ويوقفها بسهولة. نظرت إلى أصابعه القوية حول ذراعها وقالت بحزم:

– ارفع يدك عني!

– أجبريني على ذلك. رمقته باستغراب شديد، فيما كان يتابع قائلاً:

– لو كنت أحمل نيات سيئة تجاهك لما صمدت لحظة أمامي. عليك بتعلم بعض أسس الدفاع عن النفس، وسيكون هناك عنصر مفاجأة يكفي لإنقاذك

مني. ظلت «فانيسا» جامدة في مكانها للحظات، ثم قالت:

– لماذا أنت مصمم على تدريبي؟

– لأنك واجهت وضعا خطيرا جدًّا في طريقك إلى هنا؛ إذ ليس لديك أية فكرة عن سبل المواجهة... وأيضا فأنا لا أحب النساء اللواتي لا يستطعن الدفاع عن أنفسهن. ورفع قبضته عن ذراعها تاركًا لها حرية الذهاب، لكنها لم تتحرك. ففي كلامه كثير من الحقيقة. وعلى الرغم من عدم الإعجاب المتبادل بينهما إلا أنه يعني ما يقوله. قالت بعد تردد:

– إنني أستطيع حماية نفسي. إذا هاجمتني الآن فسوف أرفع قدمي وأركلك بشدة... قاطعها قائلاً:

– ... سوف تجدين نفسك ملقاة على ظهرك قبل أن تصل قدمك إلى هدفها. ولما رآها مترددة وغير مصدقة تابع قائلاً:

– تريدين إثباتا؟ إذن هيا جربي... هيا. اندهشت وقالت باضطراب:

– ربما... ربما أؤذيك. أجابها ضاحكا:

– سوف أغامر... هيا جربي. هزت رأسها موافقة لأنها تدرك أنه يقول الحقيقة:

– لا أريد أن أجرب. إنني أصدقك. والتفتت إلى الخلف حيث فراش الجودو. وارتجفت عندما فكرت في أنه سيرميها إلى الفراش بلمحة البصر. قال لها وكأنه يقرأ أفكارها:

– لن أرميك بقوة. بل لن تشعري بذلك أبدا، وهذا شيء آخر يجب أن تتعلميه، أن تتقني طريقة السقوط دون التعرض للأذى.

– سوف أفكر في الأمر جديًّا. وابتعدت بإصرار عنه. الفكرة كلها سخيفة. لن تسمح له بأن يعلمها كيف تدافع عن نفسها، بل لن تسمح له بأن يلمسها... ولكنها شعرت برعشة خفيفة عندما خطرت هذه الأفكار في ذهنها. طردت الفكرة من رأسها ووقفت تتأمل دراجة التمرين وعدادي السرعة والمسافة الملحقين بها، واللذين يشيران إلى المسافة التي قطعها الراكب والسرعة التي سافر بها. سيكون من الممتع بعد نهار طويل من العمل بين الكتب والغبار أن

www.rewity.com

تنزل إلى الغرفة لتسافر عدة كيلومترات بالدراجة. اغتصبت الابتسامة التي أوجدتها الفكرة عندما رأت «كال غرين» يراقبها.

– هل هناك شيء آخر تريد أن تريني إياه؟ قالت ذلك بسرعة، لأن نظراته تلك أشعرتها بعدم الارتياح.

– الحمامات هنا، وغرف تغيير الملابس إلى جوارها... هذا كل شيء.

– حسنا، هل يمكن الآن أن نذهب لتناول القهوة؟ إنني متعبة جدًا من جراء السفر وأريد أن آوي إلى فراشي باكرا إذا أمكن!

– بالتأكيد.. فالقيادة الطويلة متعبة جدًا. سارا معا باتجاه الصالون. التوتر كان مخيما عليهما، ومن الممكن أن ينفجر في أية لحظة إذا لم تكن حريصة، خاصة أن شعورهما بعدم الإعجاب المتبادل يجعل الأمور أكثر خطورة. وتساءلت عن السبب في هذا الشعور وهما لم يلتقيا إلا منذ ساعات قليلة. قبل أن تأوي إلى فراشها قررت «فانيسا» أن تنظر إلى الأمور من زاوية مختلفة في صباح الغد، إنها متعبة، ولم تكن كاذبة عندما قالت لـ«كال غرين» إن السفر قد أنهكها، فالحادث المشؤوم الذي كاد يقع لها خلق ردود فعل عديدة.

هناك أشياء كثيرة يجب أن تشكره عليها، لكنه جعل الأمر صعبا للغاية. رتبت وضع وسادتها ودخلت إلى فراشها بعد أن أغلقت الباب بإحكام. كانت القهوة بانتظارهما في الصالة عندما عادا من غرفة الرياضة. ولم يكن هناك من أثر للسيدة «بانكس» أو زوجها. لعلهما لا ينامان في القصر. يعني... ضحكت «فانيسا» في سرها وهي تسحب الغطاء إلى كتفيها. فـ«كال غرين» غير معجب بها، ولن يحاول بالتالي أن يتسلل إلى غرفتها. استلقت على ظهرها وحدقت إلى السقف طويلاً. رأت شقوقا متشعبة تتفرع في كل اتجاه. حاولت أن تتصور أشكالاً في هذه السقوف، لكنها لم تستطع لأن الخطوط بدأت تغيب عن ناظريها. رفعت يدها وجذبت الخيط الذي يتحكم في الأنوار... أطفأتها ونامت. استغربت «فانيسا» عندما استيقظت باكرا، ما الذي جاء بها إلى هذا المكان الغريب؟ لكن سرعان ما عاد إليها سيل الأحداث التي وقعت بالأمس. نقلت عينيها في أنحاء الغرفة تستكشفها على ضوء الفجر المبكر. كل شيء

يبدو مختلفا، والنور المنسكب من خلف الستائر أظهر اتساع الغرفة وتناسقها الجميل. غادرت فراشها واتجهت إلى النافذة. كان الضباب الكثيف يغطي الأرض، فظهرت الأشجار والزهور وكأنها غارقة في بحر من الدخان الأبيض. السكون يلف المكان. عادت إلى سريرها واستلقت عليه برهة. في هذه الأثناء، كان الضوء يشتد في الغرفة، وأدركت «فانيسا» أنها لن تستطيع العودة إلى النوم مجددا خاصة أن عقلها مليء بالأفكار المتضاربة.

بلغت الساعة السادسة والنصف، وقد أبلغها «كال» أمس أن طعام الإفطار سيقدم عند الساعة الثامنة والنصف، وهذا يعني أن هناك متسعًا من الوقت للاستحمام وارتداء ملابسها والذهاب في نزهة قصيرة. ملأت «فانيسا» المغطس بالمياه الساخنة وهي تفكر في نزهة قصيرة حتى الأبواب الخارجية لحديقة المنزل تساعدها على فتح شهيتها للإفطار وتعدها للعمل المتعب في غبار المكتبة. ولكن من الأفضل أن تأخذ حمامها الساخن بعد عناء النهار، لعل حمام المساء يكون أفضل! على كل حال تستطيع أن تستحم مرة أخرى، فقد أخبرها «كال» من ضمن ما أخبرها أمس أن المياه الساخنة جارية بشكل دائم في المنزل... فالمجرى المائي الذي ينبع من سفح الجبل يؤمّن للمنزل احتياجاته من الماء، بالإضافة إلى أنه يدير المحرك الذي يولد الكهرباء أيضا. وعندما استلقت «فانيسا» في المغطس الساخن، استعادت ذكرى السهرة القصيرة التي أمضتها مع «كال» أمس حول فنجان القهوة. وعلى الرغم من كل شيء، لا تستطيع أن تنكر أنها كانت هدنة سلمية وسط نهار مليء بالمواجهات. لقد حاول قدر جهده أن يكون ساحرا ولطيفا، ربما تعمد ذلك لكنها ليست متأكدة. واستطاعت أن تشاهد جانبا آخر غير متوقع من شخصيته.

ارتدت ملابسها وهي تفكر كيف سيكون نهارها الأول هنا. ولأنها خافت من البرودة في الخارج بعد حمامها الساخن، وضعت على كتفيها معطف الفرو الناري اللون وتسللت بهدوء من غرفتها إلى الطابق الأسفل. وحدها كانت ساعة الحائط الأثرية مستيقظة من خلال دقاتها الرتيبة. وما عدا ذلك لم تسمع «فانيسا» أي شيء في البيت الذي بدا مهجورا. إنها السابعة وعشر دقائق من

www.rewity.com

صباح أحد أيام يونيو (حزيران)، واليوم سترى جدها لأول مرة. سوف تراه وتتحدث إليه كأنه غريب. هو لن يعرف الحقيقة حتى اليوم الأخير، وعندئذٍ يكون الأوان قد فات لأنها ستغادره. أحست بالعرق البارد يتصبب من راحتي يديها، فأسرعت تغادر البيت إلى الهواء الطلق. وقفت لحظة أمام الباب تستقبل الهواء البارد المشبع بالرطوبة وهو يلفح وجهها. لقد انقشع الضباب قليلاً وأصبح الطريق المعبد مرئيًا إلى حد ما، على الرغم من أن الأشجار كانت ما تزال في بحرها الأبيض الساكن. ابتسمت بعطف وهي تشاهد الأرانب تهرب من الطريق عائدة إلى الأشجار. لو أن هذه الأرانب الجميلة تعرف أنها لا تريد بها شرًا؟

من الواضح أن الجو ينبئ بطقس مشمس جميل هذا النهار. شعرت «فانيسا» بقشعريرة تسري في جسمها. ها هي هنا الآن ملتزمة بإنهاء ما عزمت عليه -بغض النظر عن النتائج- ولا يمكن أن تتراجع أبدًا. هل هي نادمة لأنها تركت عملها؟ الزمن وحده سيجيب. كان عليها أن تترك العمل على أية حال خاصة أن رئيسها أصبح مزعجا ومضجرا، وباتت لا تحب أن تدخل إلى مكتبه لتلقى التعليمات منه. أطبقت عينيها قليلاً. إن «كال غرين» على حق فيما يتعلق بمسألة الدفاع عن النفس. منذ أن بلغت السادسة عشرة، وتحول جمالها الطفولي إلى فتنة نسائية طاغية، والرجال يحومون حولها دائما مما سبب لها الكثير من المتاعب. صحيح أنها ترتاح لقدرتها على التأثير في الجنس الخشن، لكن هناك جانبًا آخر للجمال فشل جميع من عرفتهم في فهمه والتعامل معه. فالجمال يسبب التعاسة والغيرة والشك لدى المعجبين، وأيضا لدى صديقاتها اللواتي أخذن يتجنبنها ويحاولن إبعاد رجالهن عنها مهما كلف الأمر. والآن، لأول مرة في حياتها وجدت الرجل الذي لم يقع تحت تأثيرها... بل هو معاد لها، حتى إن أحدا من الذين عرفتهم لم يعاملها كما عاملها «كال غرين». معاملته ليست فقط مزعجة بل متحدية أيضا... وأشياء أخرى كثيرة لم يجرؤ أحد من قبل على التعامل معها بهذا الشكل، خاصة عندما واجهها بعنف في الممر أمس. لقد هددها بالفعل. فهي اعتادت الإعجاب العميق من الجميع

بحيث شكل لها أسلوبه الفظ صدمة عنيفة. كم كان مرعبا معها. وفجأة، عادت «فانيسا» إلى الواقع على صوت عواء حاد... شاهدت أمامها كلب حراسة ضخما وقد تحفز للهجوم. تجمدت «فانيسا» في مكانها. تعرف من خبرتها أن عليها عدم القيام بأية حركة. فجأة سمعت صوت رجل موجود في مكان ما بين الأشجار:

- لا تتحرك يا«شيبا». اجتاحتها موجة عارمة من الارتياح، ولم تعد قدماها قادرتين على حملها وهي ترى رجلاً طويلاً في ثياب سوداء يتجه نحوها. كان في مقتبل العمر، قوي القامة له ملامح الغجر السمراء. ابتسم عندما التقت نظراتهما، وقال بلهجة مؤدبة:

- صباح الخير. لهجته الاسكتلندية كانت مليئة بالاحترام ولاحظت «فانيسا» نوعا من الخجل في تعابيره وتصرفاته.

- صباح الخير. هل هذا كلبك؟

- نعم. ثم خاطب الكلب قائلاً:

- الآن يا«شيبا» عد إلى البيت. نظر الكلب إلى صاحبه ثم أطاع الأمر وسار بعيدا. تنفست «فانيسا» بارتياح عميق. اعترفت قائلة:

- كنت... متوترة إلى حد ما.

- أنت تعرفين أن «شيبا» لم يتوقع أن يرى أحدا. فهذه المنطقة خاصة.. كان يستعمل لهجة مؤدبة للغاية في محاولة لإيضاح الموقف دون اتهامها بالتسلل إلى البيت.

- أعرف ذلك. إني أقيم هنا. فجأة شاهدت في عينيه نظرة تحدٍ:

- إذن أنت... الآنسة التي جاءت لتنظيم المكتبة؟

- نعم. واضطرت إلى مواجهته بغضب عندما انفجر ضاحكا. لكنه استدرك بسرعة وقال:

- أنا أعتذر. إنني أضحك، لأنهم طلبوا مني أن أعطي بعض الوقت للمساعدة في تنظيم المكتبة... وقد حاولت التملص من ذلك. ثم أضاف مبتسما:

- لكنني تأكدت الآن أنني أخطأت بالرفض. كان هناك شيء جذاب في

هذا الرجل... وشيء آخر بدا لها مألوفا. لكن «فانيسا» استبعدت الأمر. لقد ارتاحت؛ لأنها التقت رجلاً لا يتعمّد أن يكون فظًا.

– أنا متأسفة أيضا. ثم أضافت باستغراب:

– فيم تساعدني؟ لا أعتقد أن الأمر يحتاج إلى... قاطعها قائلاً:

– أساعدك في الكتب. أقصد إنزالها عن الرفوف العليا. فهناك أماكن يصعب على المرأة الوصول إليها. هزت رأسها موافقة:

– آه... لم أفكر في ذلك.

– إذن متى ستبدئين العمل؟

– اليوم. لكن أليس عندك عمل آخر؟

– بالتأكيد. أنا البستاني، وأعمل هنا مع أبي وعمي... وهما سيتدبران الأمر من دوني. لم يكن في طول «كال غرين»، لكنه كان أضخم بنية وأقوى مظهرا. اقترب من «فانيسا» ووقف أمامها قائلاً:

– أنا «لوري ماكينزي». من الواضح أنه ينتظر سماع اسمها، ومع ذلك لم يسأل مباشرة. ليس مثل «كال» الذي طالبها باسمها. لكن لماذا تعود هذه الأفكار لتزعجها الآن؟ مدت إليه يدها مصافحة وهي تقول:

– أنا «فانيسا كولينز». كانت يده دافئة قوية.

– سوف أذهب الآن يا آنسة «كولينز»، لكني سأعود إلى البيت الكبير في وقت لاحق... سوف تباشرين العمل في حدود الساعة التاسعة، أليس كذلك؟

– أعتقد ذلك، فالسيد «ماكلين» لم يحضر بعد، والسيد «غرين» هو المسؤول في هذا الوقت. لم يكن هناك سبب لقول هذه الجملة، لكن لعلها أرادت أن تعرف شيئا ما عن الرجل الذي ستقابله هذا النهار.

– آه.. إنه هو. رنة صوته كانت غريبة، وللحظة اعتقدت أنه يقصد جدها، لكن كلامه اللاحق بيّن لها خطأها.

– سوف آتي مباشرة إلى المكتبة وأساعدك، فذلك الرجل سيطلب مني مغادرة البيت إذا ما شاهدني. وكان على وشك أن يضيف شيئا آخر، لكنه توقف.

– السيد «غرين»؟ لماذا؟ ضحك «لوري ماكينزي»:

– لقد قلت ما فيه الكفاية. فإلى اللقاء يا آنسة «كولينز». رفع يده مودعا، وقفل عائدا من حيث جاء... واختفى بين الأشجار. سارت عائدة إلى البيت وهي أكثر فضولا من ذي قبل. راقبت «فانيسا» «كال غرين» على مائدة الفطور. أرادت أن تشير إلى لقائها بـ«لوري ماكينزي»، لكنها خشيت أن يعرف «كال» أن «لوري» سوف يأتي لمساعدتها في المكتبة، لذلك التزمت «فانيسا» الصمت. أرادت أن تعرف لماذا يكره «لوري» «كال» إلى هذا الحد؟ وهل المشاعر متبادلة بين الرجلين؟ ولم تكن لتدرك أن الجواب سيأتي قريبا جدًّا، وبطريقة غير متوقعة.

- 3 -

بعد الساعة التاسعة بقليل، دخلت «فانيسا» و«كال» في المكتبة. وكانت الشمس تملأ الغرفة من خلال النوافذ الواسعة ذات التصميم الفرنسي. حاولت «فانيسا» جاهدة مقاومة الشعور بالانزعاج. إنها مهمة صعبة، لكنها هي التي قررت المضي فيها بغض النظر عن كل الاعتبارات الأخرى. شاهدت على الطاولة الخضراء في منتصف الغرفة رداء واقيا. رفع «كال» الرداء وقدمه لها. قال لها:

– السيدة «بانكس» أحضرت لك هذا الرداء الذي سيحمي ثيابك من الأوساخ والغبار. كان صوته هادئا وخاليا من أي معنى، لكن «فانيسا» شعرت –مرة أخرى– بشيء مزعج يحيط بهما... نوع من التوتر الحاد الذي لم تفهمه ولم تحبه.

– شكرا لك ولها.

كان الرداء مصنوعا من النايلون ولا يصل إلى منتصف الساق، ومع ذلك فهو يفي بالحاجة. نظرت إلى الطاولة وقالت:

– سأضع الكتب عليها تمهيدا لفهرستها، فهل من مانع؟ سار «كال» إلى إحدى الزوايا وأشار بيده إلى مجموعة من الصناديق وقال:

www.rewity.com مرموزية

– الأوراق والبطاقات وكل ما تحتاجين إليه موجود هنا. ثم سألها:

– سوف تحتاجين إلى مساعدة عندما تصلين إلى الرفوف العليا، أليس كذلك؟ لم تكن تريد أن تتطرق إلى هذه النقطة، ولكن من الغباء ألا تفعل الآن. أجابت وهي تراقب وجهه:

– هناك شخص سيأتي لمساعدتي. قطّب حاجبيه وقال:

– ماذا تقصدين؟

– ذهبت في نزهة عند الصباح، فالتقيت برجل يدعى «لوري ماكينزي» فقال لي إنهم طلبوا منه مساعدتي.. لم يتركها تكمل جملتها.

– «لوري»؟ ولاحظت أنه ذكر الاسم بالطريقة التي ذكر فيها «لوري» اسمه. واتسعت عينا «فانيسا» وسألت ببراءة:

– هل هناك شيء غير طبيعي؟ نظر «كال» إليها مليًا. لم تكن هناك أية تعابير على وجهه، لكنها أحست بالغضب الشديد يعصف به وهو يحاول السيطرة على نفسه. قال:

– لا شيء. لو كنت مكانك لراقبته جيدا... فقد تواجهين المتاعب معه.

– المتاعب؟ ماذا تقصد؟ ظهر عليها الاستغراب، بالإضافة –بالتأكيد– إلى محاولتها تمثيل دور المغفل البريء... لكنها تناست ما يمكن أن يفعله هذا الرجل. رد بجفاء:

– اتركي هذه الألاعيب، ولا تمثلي دور البريء المسكين، فذلك لن ينطلي عليّ. أنت تعرفين تماما ما أقصده، بل يجب أن تعرفي. أنت بالغة بما فيه الكفاية، أم هل تعتقدين أن الشابين اللذين هاجماك بالأمس كانا يريدان تقديم الاحترام والطاعة لسيادتك؟ جاهدت «فانيسا» للاحتفاظ بهدوئها. لم ترد أن ترفع صوتها لئلا ينفضح اضطرابها، فقالت بصوت خفيض:

– أنت مقزز.

– إذا كانت تصرفاتي المقززة ستضع بعض الحس في رأسك.. فلا بأس. أنا لن أكون موجودا دائما للدفاع عنك. المسألة كلها أن «لوري ماكينزي» ذئب خبيث. وآمل أن تقدري على التعامل معه.

– أنا قادرة على ذلك تماما. عندي من التجارب ما يكفي لأعرف كيف أتصرف مع كل الرجال. التمعت عيناها السوداوان بالغضب وقد استعادت ثقتها بنفسها.

– ستقول بعد قليل إن عليّ ألا أشجعه... هذا ما أوحيت به أمس أيضا.

– حسنا، إيّاك أن تشجعيه. أشغالي تكفيني، ولا أريد أن أسمع صراخك طلبا للمساعدة. ردت بغضب وهي تجمع قبضتي يديها بشدة:

– لماذا لا ترحل وتتركني وحدي؟ يا له من رجل عنيد ومغرور!

– وفري لكماتك له. كان يراقب يديها وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة، ثم قال:

– لقد حذرتك مما سيحدث لك إذا ما تعرضت لي.

– اذهب من هنا فورا.

– أنا ذاهب. الغداء سيكون في الواحدة ظهرا، والسيدة «بانكس» ستقدم القهوة عند الساعة الحادية عشرة. راقبته «فانيسا» وهو يغادر المكتب بهدوء. تضاربت المشاعر في صدرها. لم تلتق بأحد من قبل يشبه «كال غرين». إنه يخيفها بالفعل. ظلت صامتة للحظات ثم استدارت تتفحص رفوف الكتب المتراصة. بعض الكتب كانت قديمة للغاية وقد اصفرّت أوراقها وتفتت الجلد الذي يغلفها. رفعت كتابا عن الأرض وفتحته بعد أن نفضت طبقة الغبار التي كانت تعلوه. كان مجلدا يجمع أعداد إحدى المجلات للعام 1767، وكانت أوراقه مصفرة بعامل الزمن ومتشققة في عدة أماكن، لكن الطباعة كانت واضحة على الرغم من صغر حجم الحروف. حملت «فانيسا» المجلد بعناية، فأحست –كالعادة– بأنها عادت إلى تاريخ سحيق. شعرت برغبة في تصفح المجلد، لكنها أبعدته مباشرة، لعلها تستطيع ذلك عند الساعة الحادية عشرة، وقت تقديم القهوة. كانت على وشك أن تضع الرداء فوق ملابسها عندما سمعت الباب يفتح، ومنه دخل «لوري ماكينزي». عادت إليها على الفور كلمات «كال» عن «لوري»، لكنها استبعدتها بسرعة واغتصبت ابتسامة عاجلة. فمن السخف أن تترك أعصابها تهبا لذلك الرجل. حيته قائلة:

www.rewity.com

– أهلا بك، كنت على وشك المباشرة في العمل. رد على تحيتها مبتسما، كانت ابتسامة ناعمة خجولة، وليست أبدا ابتسامة ذئب. قالت:

– كنت أتأمل الرفوف هنا، وسأكون ممتنة للمساعدة التي ستقدمها. كان ينظر إليها بتأمل. ومع أنها اعتادت هذه المواقف، إلا أنها أحست برعشة تسري في أطرافها. هل من المعقول أن يستغل وجوده معها؟ كل شيء ممكن حتى مع أكثر الرجال هدوءا وخجلاً. ولذلك وجدت سلوك «كال غرين» محيرا؛ إذ لم يبد عليه أنه يفكر في التقرّب إليها على الرغم من أنه رجل طبيعي بكل معنى الكلمة. لكن «لوري» يختلف عن «كال». إنه هنا لمساعدتها، وسوف تعقّد الأمور إذا ما أمضت الوقت في مراقبته؛ لذلك قررت «فانيسا» أن تتجنب كل ما يمكن أن يساء تفسيره بحيث لا تدع مجالا لأحد. ابتسمت له ببرود وقالت مشيرة إلى ناحية محددة:

– سأبدأ من هنا، ومن الأفضل أن نجمع الكتب على الطاولة ثم أقوم بالتسجيل.

– سأتناولها من فوق وأضعها على الطاولة. نزع سترته الجلدية الرقيقة فكشف عن قميص داكن الزرقة. كان صدره عريضا وكانت ذراعاه قويتين. وضع سترته على كرسي قريب وتوجه إلى إحدى الزوايا وعاد بسلم خشبي. أمضى ربع الساعة الأولى في عمل متواصل ينزل الكتب عن الرفوف ويحملها إلى الطاولة. عمل بسرعة ونشاط، وعندما وصل عدد الكتب الموجودة على الطاولة إلى حوالي مائة كتاب، توقف عن العمل ونظر إلى «فانيسا».

– هذا كافٍ على ما أعتقد! ثم أضاف:

– فأنت تحتاجين إلى مساحة من الطاولة للكتابة.

– نعم، وشكرا لك.

– سوف أساعدك. نظرت إليه «فانيسا» باستغراب. ماذا يقصد؟ شاهد نظرتها وابتسم:

– سأساعدك على ترتيب الكتب حسب التسلسل. أليس هذا ما ستفعلينه أولاً؟

– بلى، ولكن..

– بهذه الطريقة تسير الأمور بسرعة أكبر بالنسبة إليك وإليّ. هزت رأسها موافقة:

– هذا ممتاز. لكنني لا أتصوّر...

– ماذا؟ إني أعرف القراءة أيضا.

– لم أقصد ذلك. اعترضت بسرعة قبل أن ترى ابتسامته وتدرك أنه يمزح.

– أعرف أنك لم تقصدي شيئا. على كل سيكون الأمر مثيرا، خاصة مع الكتب القديمة.

– إذن من الأفضل أن نبدأ الآن. في الواقع ربما تكون لديك أفكار أفضل مني. كنت سأسجل كل عناوين الكتب مع أسماء المؤلفين والمراجع الأخرى، ثم أعيد ترتيبها مع إشارة محددة عند كل عشرة كتب أو...

– لكن عندي فكرة أفضل. لنفترض أننا... وأخذ يشرح خطته بهدوء وتفصيل وهو يحمل كتابا من هنا ويقلب صفحات كتاب آخر من هناك. وكانت «فانيسا» تفكر وهي تراقبه: «إنه شاب لطيف. فلماذا لا توجد علاقات طيبة بينه وبين «كال»؟ لعل الأمر ليس سوى عداء طبيعي، وهو كثيرا ما يحدث دون أسباب.. وقد حدث بالفعل بيني وبين «كال»». ولم يكن هناك متسع من الوقت للحديث أو التفكير؛ إذ غرقا في دوامة العمل. ومضى الوقت بسرعة بحيث فوجئا بالسيدة «بانكس» تدخل عليهما بالقهوة عند الساعة الحادية عشرة.. وعندما شاهدت السيدة «بانكس» «لوري» قالت:

– سأحضر لك فنجانا آخر. ابتسم لـ«فانيسا» التي كانت تراقب قهوتها وتتساءل عما إذا كان سيعتبرها غير مهذبة إذا ما أخذت رشفة من فنجانها. قال:

– لا أظنك تعتقدين بأنها تحبني؟ كان «كال» قد قال شيئا ما عن أن أقوال السيدة «بانكس» أكبر من أفعالها. لعله على حق. هزت رأسها وقالت:

– كلا.. هل تكرهك؟

– أجل، بطريقتها الخاصة. يجب أن تتعرفي إلى زوجها، فهو لا يفتح فمه بكلمة إذا استطاع ذلك، ومع ذلك فهي طاهية ممتازة، ولهذا السبب لا يتركها الرجل العجوز ترحل. هذه هي الفرصة، واستغلتها «فانيسا» بسرعة:

www.rewity.com

– لم ألتق بعد بالسيد «ماكلين»، هل تعتقد أنه شخص مناسب للعمل معه؟

– بالتأكيد. إنه رجل ممتاز.. عندما يعرفه الإنسان بشكل عميق. لكن النبرة التي حيرت «فانيسا» من قبل ما تزال موجودة في كلامه.

– ماذا تقصد بالتحديد؟

– حسنا. إنه فظ في البداية. قد لا يكون فظًا معك لكونك امرأة... لكنه قادر على ذلك مع الرجال. خفق قلب «فانيسا» بشدة. ما الذي دفعها إلى هذا الموقف؟ لكن ما الذي كانت تتوقعه؟ بالتأكيد لن تقابل رجلا لطيفا، خاصة بعد الذي سمعته عنه من أبيها...

– حدثني عنه قليلا! فكر «لوري» قليلا:

– إنه طويل القامة، نحيف بعض الشيء، مهووس بالمحافظة على رشاقته، يمشي عدة كيلومترات يوميًا.. ولا شك في أنك رأيت غرفة الرياضة.

– شاهدتها بالفعل. «كال غرين» أخذني إليها مساء أمس. ووجدت نفسها مدفوعة إلى أن تضيف قائلة:

– لقد وعد بإعطائي بعض الدروس في الجودو. احتقن وجه «لوري» بالغضب، وكان على وشك أن يقول شيئا عندما انفتح الباب ودخلت السيدة «بانكس» حاملة فنجان القهوة الثاني.

– هذا فنجانك. وضعته على الطاولة ونظرت إلى «فانيسا» قائلة:

– الغداء يقدم في الساعة الواحدة... ثم غادرت الغرفة. تساءلت «فانيسا» عما كان سيقوله «لوري»؛ إذ إنه حاول جاهدا خلال وجود السيدة «بانكس» أن يطرد من نفسه مشاعر الغضب. لكنه عاد إلى طبيعته الآن وقال:

– لو كنت مكانك لابتعدت عن مضايقاته.

– لماذا؟ نظر إليها بحدة.

– لأنه ثعلب. عرضه لك ليس سوى عذر... قطع حديثه فجأة ورفع فنجان القهوة إلى شفتيه. استغربت «فانيسا» كيف حافظت على طبيعتها. «كال» حذّرها أولا من «لوري»، والآن «لوري» يحذرها من «كال». القصة كلها مضحكة، لكن الاثنين جادّان في مخاوفهما.

– يا إلهي! هل هو كذلك؟ وراقبته وهو يخرج علبة السجائر. قدم لها سيجارة، فرفضتها قائلة:

– لا أدخن، شكرا.

– هل تمانعين في أن أدخن؟

– لا أبدا! لماذا تقول إنه ثعلب؟ فأنا لم أره كذلك. بدا الغضب واضحا على وجهه عندما أجاب:

– لأنه ذكي جدًا في إخفاء احتياله. لكن عليك أن تسألي أختي عن الحقيقة فهي تعرفه أكثر من أي إنسان آخر... أجل أختي. لقد رحلت الآن إلى «أبردين»... إنها تستطيع أن تخبرك بأشياء عديدة عن «كال غرين».

– متى رحلت؟

– منذ أكثر من شهر تقريبا. إنها تعمل الآن في فندق خالتي، وتقول إنها لن تعود ما دام «كال» هنا.

كان ينظر إلى الباب وكأنه يتمنى أن يدخل الشخص الذي يتحدث عنه. تناولت «فانيسا» جرعة كبيرة من القهوة لترطب فمها الجاف. وتنازعتها رغبتان: الأولى في أن تسمع المزيد، والثانية أن تقول لـ«لوري» إنها لا تريد أن تسمع شيئا آخر. لكن «لوري» حل المشكلة عندما وقف وأطفأ سيجارته في المنفضة وشرب قهوته دفعة واحدة.

– حسنا، لقد قلت ما فيه الكفاية. يجب أن أعود إلى عملي بعد تناول الغداء. قبل ذلك سأجهز لك من الكتب ما يكفي لعملك هذا اليوم.

– شكرا لك، هل تعرف متى سيعود السيد «ماكلين» إلى البيت؟ أجاب قائلا:

– أنا لا أعرف، لكن السيدة «بانكس» يمكن أن تخبرك. لماذا تسألين؟

– إنه صاحب العمل.. وأعتقد أنه.. قاطعها بابتسامة صفراء:

– حاولي الاستفادة من الوقت قبل أن يحضر. لكنه استدرك قائلاً:

– كنت أمزح فقط. إنه ليس سيئا على الإطلاق. فقط –تردد قليلا ثم تابع– من الصعب شرح ما أقصده بكلمات قليلة، فهو يبدو في بعض الأحيان وكأنه ينظر

www.rewity.com

من خلال الإنسان، أي كأنه لا يراه أبدا أو أنه بعيد عشرات الكيلومترات.. إنه غريب جدًا. أنصتت «فانيسا» بإمعان. أين يكون عندما يذهب بعيدا؟ هل يسترجع الأحداث الماضية ويندم على ما فعله؟ هل يعرف أن ما فات قد مات؟ ربما لن تعرف أبدا. شيء ما خفق في داخلها. إنها تريد أن تلتقي هذا الرجل.. جدها، ولكنها في الوقت نفسه ترغب في الهرب وأن تنسى كل شيء عن «دينستون هاوس». أطرقت تنظر إلى يديها. كلا، يجب ألاّ تفعل ذلك أبدا. عليها أن تستمرّ حتى النهاية.

– هل أنت على ما يرام؟

– ماذا؟ آه. أنا متأسفة. هزت «فانيسا» رأسها وابتسمت بعمق لـ«لوري» ناسية قرارها بإبقاء مسافة بينها وبينه.

– كنت أفكر. وشاهدت وجهه يتغيّر، التمعت في عينيه السوداوين ملامح دافئة... فحوّلت نظرها عنه وشغلت نفسها بأحد الكتب. بعد عشر دقائق وقع المحظور. كانت قد توجهت إلى أحد الرفوف للتأكد من كتاب وضعته هناك قبل قليل، وعندما رفعت رأسها، شعرت به خلفها تماما حتى قبل أن تلتفت إليه. تنفست بعمق، ثم أحست بيده اليسرى على ذراعها فالتفتت بهدوء وقالت:

– نعم، ماذا..؟ ماتت الكلمات إذ انحنى نحوها وعانقها بملء ذراعيه. دفعته بعيدا عنها بدون غضب وقالت:

– لماذا فعلت ذلك؟ ابتسم «لوري» قائلا:

– أحسست برغبة في ذلك. كان وجهه شاحبا عندما نظر إليها. قالت بحزم:

– أرجوك ألاّ تكررها. يجب أن تتذكر أننا نعمل معا فقط، وليس أكثر من ذلك.

– سأحاول أن أتذكر. هل كنت سترحبين بالأمر لو كان «كال» مكاني؟ كبتت «فانيسا» موجة عارمة من الغضب وقالت:

– بالتأكيد لا. وعلى كلٍ فإن الأمر لا يعنيك إطلاقا.

– هذا أفضل، فأنا لا يمكن أن أتصوّرك بين ذراعيه. أجابته ببرود شديد:

– إذن لماذا لا تفكر في عملك بدلا من الأفكار الأخرى؟ طغت ابتسامة كبيرة على شفتيه وهو يقول:

– إنك قوية بالفعل. أنا أحب الفتاة التي تتأجج بالنار. ابتعدت «فانيسا» عنه باتجاه الطاولة. وضعت الكتاب الذي كان بيدها ثم عادت نحوه وهي تقول:

– اسمع. يبدو أنك خرجت عن حدودك. أنا أشكر لك مساعدتك في الكتب، لكنني متأكدة من قدرتي على الاستغناء عن خدماتك إذا كنت سأضطر إلى مراقبتك طوال الوقت. هل كلامي واضح؟ التمعت عيناها بالغضب وامتلأ خداها بالدم، وهي تقف بتحدٍ وثقة بالنفس بينما كان «لوري» يقترب نحوها. في هذه اللحظات بالذات دخل «كال» الغرفة. فخيّم جوّ من الصمت المتوتر لثوان معدودة، قطعه «كال» بصوته العميق قائلا:

– جئت لأرى إن كان كل شيء على ما يرام. استدارت نحوه قائلة:

– الأمور ممتازة، شكرا لك. حاولت الابتسام، لكنها لم تستطع. في حين كان «كال» يوجه نظرة حديدية إلى «لوري».

– هل واجهت أية متاعب مع الكتب؟ قابل «لوري» نظرة «كال» بقسوة أشد... وفكرت «فانيسا» التي كانت تراقب المشهد بأنهما أشبه بكلبين في شارع مهجور، كل منهما يزن قوة الآخر ويستعد للهجوم في أية لحظة.

– لا متاعب على الإطلاق، وأمورنا تسير على خير ما يرام. وحاولت أن تضع ابتسامة معبرة على وجهها. فقد قررت بينها وبين نفسها أن تثبت في موقعها وتنتظر ما سيحدث، لأن ما يجري الآن لا يعنيها لا من قريب ولا من بعيد. هز «كال» رأسه دون أن يعبر وجهه عن مشاعره.

– حسنا، سأترككما تكملان العمل. ثم غادر المكتبة وهو يحاول أن يسيطر على أعصابه الثائرة. وعندما أغلق الباب التفت «لوري» إلى «فانيسا» وأفلت صفيرا متقطعا. قال «لوري»:

– حظنا جيد أنه لم يدخل قبل ثوان. ترى ماذا كان سيفعل لو رآني وأنا أعانقك؟

– لست أدري. ثم أضافت وهي تحاول إخفاء دهشتها:

www.rewity.com

– كنت تفضل ذلك! فعندئذٍ سيقع الشجار بينكما وهذا ما تريده! انقبضت عضلات وجهه وهو يقول:

– أتمنى الفرصة المناسبة لضربه... إذا كان هذا ما تقصدين! عقدت «فانيسا» حاجبيها وقالت:

– إذن من الأفضل أن أحذّرك، لقد تعرضت وأنا في طريقي إلى هنا لمشكلة مع شابين يركبان الدراجات النارية، واستطاع «كال» أن يطيح بهما أرضا في لمح البصر مع أن أحدهما كان يحمل زجاجة فارغة. لم أر مثل ذلك المشهد في حياتي، وأتمنى ألاّ أرى مثله في المستقبل. وحتى لو كنت تكرهه فيجب ألا تستهين به، فهو أقوى بكثير مما يبدو عليه. أجاب «لوري» بنعومة:

– أستطيع تدبر أمري معه. فقط أريد الفرصة المناسبة. راقبته «فانيسا» جيدا. إنه قوي وصلب العود. ترى لماذا يرغب الرجال في القتال دائما؟ ولماذا يحلون جميع المشاكل بالقوة الجسدية؟ أحست بأنها تعبت من هذه الأجواء التي أصبحت مزعجة للغاية، ولعل أحداث الأمس، أو ما كاد يحدث بالأمس، هي مصدر تعبها. وحتى حلول موعد الغداء، كان سلوك «لوري» سليما. جهز عشرات الكتب بحيث لا تضطر «فانيسا» إلى تناول أي منها طيلة اليوم مهما عملت بسرعة. ولم يحاول قط أن يلمسها ولا أن يقترب منها. وقبل دقائق من الساعة الواحدة قال:

– سوف أذهب الآن، ولكني سأعود صباح الغد إذا لم يكن عندك مانع. أجابت:

– شكرا لك. السيد «ماكلين» سيكون هنا في ذلك الحين، فهل تعتقد أنه يمانع؟

– هو الذي اقترح الفكرة أساسا. وأضاف مبتسما:

– عندما يراك سيدرك فورا لماذا غيّرت رأيي، فهو معجب بالنساء الجميلات أيضا. لكن مزاجها لم يكن ليتقبل الإطراءات:

– إذن، أراك صباح غد. يجب أن أذهب الآن وأستعد للغداء. خلعت الرداء الواقي ووضعته على الكرسي قبل أن يتحرك «لوري» لمساعدتها. ثم خرجا معا

من المكتبة. كانت غرفة الطعام خالية تماما عندما دخلتها «فانيسا» بعد عشر دقائق. وأول ما لاحظته كان وجود كرسيين فقط حول الطاولة. خفق قلبها بطريقة غريبة، إذ إن هذا يعني أن جدها لم يأت بعد. جلست في المكان الذي شغلته أمس، فأحست بموجة عارمة من الوحدة تجتاح نفسها. فجأة دخل «كال غرين» الغرفة، فبذلت جهدا كبيرا كي تخفي الأسى الذي كان واضحا في عينيها. جلس «كال» في مواجهتها وعلى وجهه تعبير غريب وفي عينيه نظرة متفحصة، وكأنه يعرف ما الذي جرى في المكتبة. وأخيرا حطمت كلماته جدار الصمت:

– أنا متأسف إذا كنت قد دخلت عليكما في الوقت غير المناسب. ولكن «فانيسا» لم تجد في صوته ما ينم عن الأسف فعلا. أجابته بهدوء:

– لا، أبدا، كنا مشغولين في ترتيب الكتب، هذا كل شيء.

– هل كنتما فعلا؟ بدا لي أن في الجو نقاشا حادا... لكن المسألة لا تعنيني على أي حال. أجابت موافقة:

– معك حق، المسألة لا تعنيك أبدا. في تلك اللحظة دخلت السيدة «بانكس»، فقطعت ما كان «كال» على وشك أن يقوله. تركت لهما الحساء وبعض الخبز، وقالت:

– سأعود بعد دقائق. الغداء اليوم فطيرة بالجبن، فاستعدا لها.

فكّرت «فانيسا»: «لو كنت هنا مع شخص آخر لضحكنا على طريقتها في الكلام، لكن هذا الشخص العدواني... لماذا هو هكذا، لماذا؟» انحنت نحو طبق الحساء الذي كان ساخنا جدًّا، وما إن لمست الوعاء حتى سمعت زعيقا حادا من الخارج فقفزت خوفا واضطرابا. اصطدمت بالطاولة فاهتز الطبق وانسكب الحساء الساخن على يدها اليمنى. أطلقت «فانيسا» صرخة ألم عالية وهي تحس حرارة الحساء تلسع يدها بشدة. ركض «كال» نحوها وأمسك معصمها بيده وسكب الماء على الجزء المصاب. طلب منها بصوت آمر أن تجلس وتضع رأسها بين ركبتيها فورا. أطاعته دون أية مقاومة وسمعته يقول:

– سأحضر بعض الإسعافات الأولية، دقيقة واحدة فقط. عادت إليها موجة

الألم أشدّ مما كانت، ولكنها لم تتحرك من الكرسي. كان صوته آمرا بحيث لا تستطيع أن تخالفه. لم يغب «كال» سوى لحظات معدودة عاد بعدها وهو يحمل صندوقا وضعه على الطاولة وفتحه بسرعة... ثم أخرج مرهما أصفر اللون ودلك به الجزء المصاب. قال لها وهو يواصل التدليك:

– الصرخة التي سمعتها هي صوت الطاووس. صحيح أنه يصدم الإنسان للوهلة الأولى لكنك ستعتادينه بسرعة.

– طاووس! تساءلت بصوت هامس وهي تضغط على شفتيها لتحبس صرخة ألم.

– هذا أفضل، أليس كذلك؟ كان كلامه باردا وهادئا، وقد اختفت العداوة بينهما على الأقل لبعض الوقت.

– بلى، شكرا لك. نظرت إلى الطاولة، فصدمتها الفوضى التي سببها الحادث. شعرت بالدموع تطفر إلى عينيها وهي تقول:

– أنا آسفة. قاطعها وهو ينظر بدوره إلى الطاولة.

– لا تهتمي، فالسيدة «بانكس» سترتب كل شيء في لحظات. قالت له معتذرة:

– لم تتناول حساءك بعد.

كان يلف قطعة من القماش حول يدها، في حين بدأ الألم يخف بفعل الدواء الذي وضعه. أجاب قائلا:

– إنه كان ساخنا جدًّا. هل تريدين أن أحضر لك صحنا جديدا؟ هزت رأسها:

– كلا، سأكتفي بقسم من الفطيرة... فأنا لست جائعة تماما.

– حسنًا، هل تنوين الراحة في غرفتك لبعض الوقت؟ نظرت إليه بحدة عندما أحست السخرية في صوته. استغرب نظرتها وقال:

– ما الأمر؟ هزت «فانيسا» رأسها المتعب:

– لا شيء. اعتقدت أنك.. قاطعها بابتسامة لطيفة:

– أسخر منك؟ كلا. لقد شحب لونك من جراء الصدمة. لا أحد يمانع في أن

تأخذي قسطا من الراحة ولو لنصف ساعة.

– كلا، شكرا لك. سأشعر بتحسن كبير بعد أن آكل. لكنها بدأت ترتجف، ولم تستطع أن تخفي الحقيقة. وضع ذراعيه على مرفقيها ورفعها عن كرسيها قائلا:

– من هنا، انتقلي إلى الكرسي الآخر وأحضري معك طبق حسائك. وكانت «فانيسا» أضعف من أن ترفض أوامره. أحست بالدفء والشبع عندما تناولت الحساء الذي أصبح فاترا.

أحضرت السيدة «بانكس» الفطيرة، ولما شاهدت فوضى المائدة طلبت منهما الانتقال إلى ناحية أخرى حتى تنظف الطاولة وتعيد ترتيبها، ففعلا دون تردد. اشتد الألم في يد «فانيسا» التي اعتقدت أنها استطاعت إخفاء الحقيقة عن الرجل الجالس قبالتها والذي لم يعد يظهر علامات العداء المعتادة تجاهها. بعد أن أنهيا الأكل، اتجه ناحية «فانيسا» وقال:

– هيا بنا، سنتناول القهوة في البهو.

– أجل. تمايلت قليلا عندما وصلت إلى الباب، وسمعت صوته وكأنه قادم من بعيد... ثم أحست بدفء يده على ذراعها. همس في أذنها:

– لماذا أنت عنيدة إلى هذا الحد؟ وعلى الرغم من أنها فهمت ما يقصده إلا أنها قالت:

– لم أفهم ما تعنيه تماما؟ وعلى طول الطريق من غرفة الطعام إلى البهو كانت الجدران تتمايل أمام ناظريها... وكم شعرت بالفرح لأن ذراعه القوية تسندها. قالت وهي تنظر إليه بعد أن أجلسها على المقعد:

– إنني على ما يرام. ولم تستطع إخفاء دموع الألم. ودون أن ينبس ببنت شفة استدار مغادرا البهو وتركها وحدها. اعتقدت أنها أزعجته فرحل. قالت لنفسها: «هذا ممتاز». لكنه عاد بعد أقل من دقيقة حاملا فنجانين من القهوة. قال وهو يضع الفنجان على الطاولة القريبة منها:

– سآخذك إلى الطبيب في القرية. اشربي قهوتك، ثم نتوجه إليه.

– لكني لا...

www.rewity.com

– أرجوك دون نقاش. ثم أضاف بلطف:

– سنذهب إليه حتى لو اضطررت إلى حملك إلى السيارة. نظرت إلى فنجانها ثم تناولته ببطء. لا شك في أنه يعني كل كلمة قالها، وهي تعرف أنه سينفذ وعيده. وابتسمت في سرها عندما تصورت نفسها «محمولة» بين ذراعيه إلى السيارة.

– حسنا. وأغمضت عينيها بألم عندما رشفت جرعة كبيرة من القهوة الحارة.

– هل تريدين سيجارة؟

– أنا لا أدخن إلا نادرا... شكرًا لك. سمعت صوت الولاعة، ثم شمت رائحة التبغ المحترق.. لكنها لم تستطع أن تنظر إليه. ولسبب غير معروف أخذ قلبها يخفق بسرعة غير طبيعية، إلى الدرجة التي جعلتها تعتقد معها أنه سيسمع دقاته إذا ما رفعت عينيها إليه. كان رأسها ساخنا، وتساءلت عمّا إذا كانت حرارتها قد ارتفعت بسرعة. وضعت يدها على جبينها فأحست به مشتعلا.

– هل أنتِ على ما يرام؟ بدا لها صوته وكأنه آت من مسافة بعيدة جدًا، أو كأنها على وشك الإصابة بالصمم... رفعت رأسها بسرعة فوجدته وقد اقترب لتناول فنجان القهوة من يدها.

– لا بأس.. لا بأس. فقط.. لم تستطع أن تبلع ريقها. يا الله، ما الذي يحدث لها؟! بدت الغرفة لناظريها سابحة في ضباب رمادي كثيف، ورفعت يدها في محاولة يائسة لتمسك بأي شيء.. ثم أحست بيد تمسك يدها وسمعت صوت «كال» آتيا من بعيد بعيد... لكنها لم تسمع كلمة مما قاله. أفاقت بعد فترة لتجد نفسها ممددة على المقعد المجاور. فتحت عينيها ببطء فوجدت «كال» واقفا بالقرب منها. التقت عيونهما. قال لها:

– لم يحدث شيء، أغمي عليك فقط فلا تقلقي. قالت «فانيسا»:

– لم يحصل أن أغمي عليَّ من قبل. ابتسم برقة وهو يقول:

– لقد بدأت الآن. ارتاحي هنا لعدة دقائق ثم نذهب إلى الطبيب. إنها لا تريد أن تذهب في سيارته، ولا تعرف لماذا، ولا تستطيع أن تقول له ذلك أيضا، لأنه هدد بحملها بالقوة إذا رفضت. بدأت قوتها تعود إليها وصارت قادرة على

التفكير بوضوح. بعد عدة دقائق نظرت إليه قائلة:

– أنا جاهزة الآن.

– إذن سنذهب الآن. فكلما أسرعت بمعالجة الجرح، كان الشفاء أسرع.

انتظرت «فانيسا» في البهو الداخلي في حين توجه «كال» لإحضار السيارة إلى الباب الأمامي. سمعت صوت السيارة، فغادرت الباب بتأن لأنها لم تكن قد استعادت توازنها كاملا. بعد دقائق كانا معا على الطريق. وكان «كال» يقود سيارته بسرعة معتدلة. سألته عندما اقتربا من الطريق الرئيسي:

– كم تبعد القرية عن البيت؟

– حوالي ثلاثة عشر كيلومترًا. بعد قليل سنصل إليها. هل عاودك الألم؟ رسمت على شفتيها ابتسامة شجاعة وقالت:

– ليس قويًا. لم يحصل أن أغمي عليّ من قبل. هذه أول مرة.

– ربما لم تصابي في الماضي بالأذى كما أصبت اليوم. فالإغماء رد فعل طبيعي من الدماغ ضد الإصابات.

– هل حدث أن أغمي عليك من قبل؟ ركز نظره فيها وكأنه يحاول استكشاف خلفيات السؤال. ثم ابتسم قائلا:

– نعم. مرة واحدة.. لكنني لن أخبرك عن تفاصيلها، ليس الآن على أي حال. استغربت «فانيسا» كيف أن التوتر قد زال بينهما، ولكنها أحست بشيء غير طبيعي وهما في طريقهما إلى القرية. وعدلت من جلستها عندما تذكرت أنها في السيارة نفسها مع الرجل الذي تكرهه، وأنها أجبرت على مرافقته على الرغم من قرارها بعدم الإقدام على ذلك أبدا. ووجدت نفسها تنتظر شيئا ما لا تعرف طبيعته. وأخيرا سمعت ما كانت تتوقعه. قال فجأة دون أن يرفع نظره عن الطريق:

– سيأتي صاحبنا صباح غد، وليس اليوم كما كان المخطط. عرفت على الفور من المقصود بكلمة «صاحبنا»، لكنها تساءلت كما لو أنها فوجئت:

– من؟ السيد «ماكلين»؟ التفت إليها بطرف عينيه وقال:

– ومن غيره؟ إنه صاحب العمل. اعتقدت أنك تريدين معرفة موعد حضوره!

www.rewity.com

– بالتأكيد.. بالتأكيد. خفق قلبها بسرعة أشد. كان هناك شيء ما في كلماته لم تستطع أن تعرف معناه؛ لذلك كان عليها أن تفكر مليًا قبل أن تتكلم، خاصة أن الألم أخذ يزداد أيضا، ثم قالت:

– لكنك قلت إنه سيعود اليوم!

– كان من المفروض أن يعود ظهرا، لكنه اضطر إلى التأخر، هل قلت إنك لم تقابليه من قبل؟ ما الذي عناه بسؤاله هذا؟ نظرت «فانيسا» إلى الأشجار المتناثرة خارج السيارة، ولم تلاحظ أنها كانت تضغط على معصمها المصاب. وفجأة عادت إلى الواقع وقالت:

– كلا لم أقابله. كيف يمكن ذلك وأنا قد جئت من «لندن»؟

– أعرف أنك من «لندن» وأن اسمك «فانيسا كولينز». تجمدت «فانيسا» عندما رأته يبتسم وهو ينطق هذه الكلمات. لقد شدد كثيرا على كلمة «كولينز»، ولا شك في أنه تعمد الأمر. شعرت بخوف غامر استمرّ للحظات فقط، ثم تنفست بعمق. هل يمكن أن يكتشف الحقيقة؟ لا، فهذا مستحيل. لكنها تتمنى الآن لو أنها لم تأت أصلا. بدأت يدها تنتفض من الألم، لم تعد قادرة على التعامل مع هذا الرجل المزعج خاصة في مثل وضعها الحالي... بل لم تعد قادرة حتى على إيجاد الأجوبة اللازمة. ومع ذلك حاولت:

– نعم. واسمك هو «كال غرين»، اسم غريب حقًا.

– أجل اسمي الكامل «كالوم غرين»، أبي اسكتلندي وأمي رومانية. أثار هذا الاكتشاف اهتمام «فانيسا» على الرغم من انشغالها بأمور أخرى، ورأت فيه مناسبة لإبعاد «كال» عن الموضوع الأساسي:

– تقصد أن نصفك روماني؟ هز رأسه علامة الإيجاب. كان عليها أن تلاحظ أن نصفه أجنبي من خلال فكه العريض وشعره الأسود وعينيه الناريتين الحادتين اللتين استطاعتا أن تغوصا في أعماقها، وقالت:

– لا! لكنها لم تعرف لماذا قالت هذه الكلمة.

– لا ماذا؟

– لا شيء، لا شيء. وهربت من عينيه بالنظر إلى الأشجار في الخارج.

– وماذا عن والديك؟ إلى أي بلد ينتميان؟ كان فقط سؤالاً تقليديًا في مثل هذه المناسبة، لكن تصرفات «كال» جعلتها تشك في كل كلمة يقولها. تنفست بعمق وقالت:

– أمي... لكن القصة التي رددتها عشرات المرات في سرها تبخرت دفعة واحدة. تحول رأسها إلى صفحة بيضاء خالية. رفعت يدها إلى جبينها. لم يعد عندها سوى سلاح واحد:

– أنا آسفة.. إن يدي تؤلمني بشدة. كان ادعاؤها حقيقيًا، ولو بشكل جزئي. على الأقل سيعطيها بعض الوقت للتفكير. وحتى هو لن يعمد إلى إزعاجها أكثر. ترى هل يفعل؟ ومع أنه لم يصدقها، فقد تصرّف بشكل مغاير تماما. زاد سرعة السيارة فورا وقال:

– سنكون هناك خلال دقيقة فقط. وألقت «فانيسا» رأسها على المقعد تأخذ قسطا من الراحة. هي تعرف أنها هدنة مؤقتة.. لكن كم من الوقت ستدوم؟

كان الطبيب من النوع الصامت، وعندما خرجت «فانيسا» من عيادته كان الألم قد خف بشكل كبير. كتب لها وصفة طبية وأعطاها بضع حبات من الدواء وأمرها أن ترتاح لعدة أيام. في القاعة الخارجية، كان «كال» يجلس على أحد المقاعد الخشبية ينتظر انتهاء الطبيب. نهض واقفا عندما برزت «فانيسا» وسألها:

– هل تشعرين بأنك أفضل؟

– أجل. شكرا لك. قال لي إنك فعلت المناسب عندما سكبت الماء البارد على الحرق، فهذا سيمنع ظهور ندوب دائمة. على كل حال يجب أن أرتاح لعدة أيام ثم تعود يدي إلى طبيعتها.

– إذن يجب أن نجد لك وظيفة أخرى غير المكتبة؟ قال هذه العبارة مازحا وهو يفتح لها الباب. نظرت إليه بحدة:

– لا، أبدا، فأنا أكتب باليد اليسرى. لقد أعطاني الطبيب وصفة، فهل هناك صيدلية قريبة؟

– في الطرف الآخر من القرية. سأحضر السيارة.

– ألا نستطيع أن نسير إليها؟

– هل تشعرين بقوة كافية للسير؟ التفتت «فانيسا» إليه بسرعة. هل كانت هناك تلك النغمة الساخرة أم أن خيالها يزيّن لها الأمور كالعادة؟

– أعتقد أن السير في مثل هذا النهار الجميل سيفيدني. وكانت على حق. فالشمس تطل وسط سماء صافية تماما، وإلى يسارهما بحيرة واسعة، وإلى اليمين صف لا ينتهي من البيوت الريفية المتناثرة وسط الحدائق.

– حسنا، هيا بنا. سارا معا عبر الشارع غير المعبد في أقسام كبيرة منه، ولم تزعجهما حركة السير. حاولت «فانيسا» الانشغال عن الغريب الذي يسير إلى جانبها بتأمل الريف الممتد حتى حدود التلال البعيدة. كانت المنطقة أخاذة بحيث تمنت «فانيسا» أن تمضي عمرها كله هنا.

– إنه منظر ساحر، أليس كذلك؟ فوجئت بكلامه، وتساءلت:

– أي منظر؟

– هذه المنطقة، الريف كله، لقد لاحظت التأثير الذي تركه فيك لأول مرة.

– أجل، إنه رائع. لكنها شعرت بالقلق، لماذا يتصرّف بهذا الشكل المكابر؟ لقد استطاع فعلا أن يقرأ أفكارها. لماذا يجب أن يكون هنا الآن... هنا في «دينستون هاوس»؟ ليس بالإمكان أن تحصل على جواب كاف. لكن عليها أن تكون حذرة للغاية منه. وحتى تسترجع شجاعتها المهزوزة قالت شيئا أرادت أن تقوله قبل دقائق:

– أشكرك جدًا لأنك أحضرتني إلى الطبيب، فقد فعلت عين الصواب.

– لا بأس على الإطلاق.. وابتسم بعمق وهو ينظر إليها، فقفز قلبها في صدرها عدة قفزات متتالية. والآن لماذا انفعلت هكذا؟ فكرت في نفسها. إنه إنسان كريه بالفعل، لكنه يتغيّر تماما عندما يبتسم. فهو يستطيع أن يكون جذابا إذا ما أراد. وما حدث بعد ذلك جعلها تتأكد من الأمر أكثر... ولكنها... لم تكن قادرة على توقع الأمور. انتظر «كال» حتى وصل إلى منتصف الطريق المؤدي إلى البيت، تقريبا في النقطة التي أشار عندها إلى «فانيسا» للتوقف مساء أمس، وتوقف فجأة فالتفتت «فانيسا» إليه خائفة.

– أعتقد أنك ستعجبين بالمشهد من هنا، فالمرتفع يمكّن من رؤية أوسع. وعلى الفور شكت «فانيسا» في نياته، خاصة عندما تذكرت الأسئلة التي طرحها قبل أن توقفه بحجة الألم في يدها. الآن لا تستطيع أن تفعل شيئا. انتظرت حتى خرج «كال» من السيارة واستدار ناحيتها وفتح الباب لها، فخرجت. على الأقل لا وجود للعداء في تصرفاته، ولكن الشك يسيطر عليها. هناك طريقة واحدة للتصرف: البرود المطلق.

– شكرا لك. ابتسمت وهي تغادر السيارة فكانت الابتسامة نفسها التي كانت تجعل السيد «مورتون» يقع في حبها. رد «كال» ابتسامتها بأحسن منها. كانت عيناه صافيتين ووديتين. قال بهدوء وثقة:

– هذا أفضل. ليس من المناسب أن نمضي الوقت كله في الشجار، أليس كذلك؟ وافقت «فانيسا»:

– بالتأكيد. ثم التفتت حولها وقالت:

– أين..؟ أشار مقاطعا:

– هناك. إذا صعدنا التل سنشاهد أروع مشهد في كل «اسكتلندا»، على الأقل حسب رأيي. هل يمكنك الصعود؟ كان السؤال بلهجة قلقة وكأنه فعلا يهتم بها... وقد بدأت «فانيسا» تعتقد بأنه قلق عليها حقيقة.

– أجل. وسارا صعودا نحو التل تاركيْن خلفهما شجيرات عديدة، وحشائش بدأت تخضر مع الربيع المقبل، وبعض الأزهار البرية المتناثرة هنا وهناك. استنشقت «فانيسا» نسيم الربيع الممزوج بعبق البحر وهي تقطع المسافة القليلة المتبقية. وعندما وصلت إلى القمة تسمّرت في مكانها وعلى وجهها علامات الإعجاب العميق. قالت باندهاش:

– إنه رائع... إنه رائع جدًا، أليس كذلك؟ كانت التلال تمتد تحتهما في كل اتجاه حتى شاطئ البحر، واللون الأخضر الغامق يغطي كل شيء... وفي المدى البعيد وقفت صخور جبارة أمام زحف الموج الذي كان يرتدّ عنها تاركا في الجو رذاذه الأبيض الهائل. ونظر «كال» إليها وابتسم مجددا، وتساءلت لماذا يبذل كل هذا الجهد؟ فجأة قال لها:

– أنا أعرف أن اسمك ليس «فانيسا كولينز». ثم أضاف بهدوء:

– فما هو اسمك الحقيقي؟

- 4 -

صعقت «فانيسا» عند سماعها كلام «كال»، وأحست بالضياع لثوان خيل إليها أنها ساعات... لكنها استعادت رباطة جأشها بسرعة وتذكرت النصيحة الذهبية: «الهجوم هو أفضل وسيلة للدفاع». استدارت ببطء نحوه وقد زال الخوف من نفسها.. فهي لن تترك هذا الرجل يفسد عليها المخططات التي أعدت لها منذ مدة. بدا عليها الهدوء التام، كيف لا وهي تملك أسلحة لم تستعملها بعد ولا تعتقد أنه يستطيع مواجهتها؟ أنوثتها هي أحد أهم هذه الأسلحة. ويمكنها دائما أن تستعمل سحرها النسائي حتى النهاية، ولكن الوقت لم يحن بعد. الآن عليها أن تستفز مشاعر الغضب في نفسها ردًّا على اتهاماته الباطلة. فهذا هو الموقف الصحيح لو كانت فعلاً بريئة من تلك الاتهامات. فخرجت الكلمات قوية وهادئة:

– عفوا، ماذا قلت؟ هل جننت أم أنك لست سوى إنسان وقح؟ وقف «كال» قبالتها واضعا يديه في جيبي سرواله وقال:

– محاولة جيدة. ادعاء الغضب يناسبك تماما. ارتفعت درجة التوتر عند «فانيسا»، ولكنها جاهدت للحفاظ على هدوئها. من الأفضل ألا تفقد أعصابها. وعليها أن تستمر في التمثيل لئلا تقول شيئا تندم عليه فيما بعد، خاصة إذا أرادت مواجهة هذا الرجل. كان «كال» يراقبها وقد تضرج خداها وأخذت تتنفس بسرعة، لكنه لم يبد أية مشاعر، وظلت ملامح وجهه القوية الصلبة ساكنة وهادئة، ثم قالت «فانيسا»:

– لقد أطلقت اتهامات سخيفة، فهل يمكن أن توضح كلامك؟ بدت ملامح ابتسامة على وجهه:

– بالتأكيد، هل أنت تذكرين تفاصيل لقائنا الأول؟

– وهل يمكن أن أنساه؟ أنت تشير أساسا إلى الطريقة الفظة التي سألتني بها عن اسمي.

– هل كنت فظًّا؟ حسنا، ربما... لكنني كنت غاضبا منك. فقاطعته بصوت ناعم:

– يظهر أنك تريد أن تخبرني بقصة حياتك! فإذا كنت...

– لا، لن أخبرك بقصة حياتي. أنت التي سألت. لم تستطيعي حتى أن تتذكري اسمك.

– لقد ذكرت لك السبب. فأنا لا أخبر الغرباء عن...

– دعك من هذا. أي غريب أنا؟ فقد أنقذتك لتوي من موقف صعب. فلماذا يجب أن تخافي مني؟

– كنت متوترة جدًّا، وسأكون ممتنة إذا ما سمحت لي بإنهاء جملة واحدة أقولها. واندمجت في دورها الجديد مما أعطاها دفعة كبيرة من الثقة بالنفس.

– لنقل إنني لم أرد أن أعطيك اسمي الحقيقي. هذا كل ما عندي من دفاع. أنت أسوأ أنواع الناس؛ لأنك تختار الأوقات غير المناسبة حتى تطرح اتهاماتك السخيفة. هذا طبيعي منك، وأنا أجد أن ملاحظاتك مهينة ولن أبقى هنا دقيقة واحدة، ويمكنك أن تستمتع بالمشهد وحدك. ثم استدارت وتركته خلفها مصممة على الرجوع إلى السيارة، بل على السير إلى البيت إذا رفض نقلها بعربته، المهم أن تحافظ على مظهر الثقة، حتى لو كانت ترتعد داخليًّا، فما دامت قادرة على إخفاء الأمر، فإن عندها فرصة كبيرة لربح المعركة. وهذه كانت معركة بالفعل، بين شخصيته الصلبة الاستفزازية وبين موقفها دفاعا عما تعرفه ويجهله هو. لحقها «كال» على الفور. لم ينتظر قط، بل صعد التل قفزًا بخطوات عريضة ثم أمسك بذراعها وجمدها في مكانها، ولم يكن أمامها إلا الوقوف. استدارت إليه وقد امتلأت بالغضب الحقيقي هذه المرة.

– أبعد يديك عني أيها الخبيث. ضاقت حدقتا عينيه وهو يقول:

– إن لك مزاجا صعبا للغاية.

– معك أنت؟ أجل... أنت مقزِّز. فجأة أطلق ضحكة عالية مجلجلة. نزعت

«فانيسا» ذراعها من قبضة يده بأقصى ما تملك من قوة، وصرخت:

– أنت حقير... حقير... دعني وحدي. وانفجرت باكية رغما عن إرادتها، وأسرعت تركض نحو السيارة والدموع تحجب عنها الرؤية الواضحة. كان كل شيء يسبح في ضباب خفي وكأنها في حلم. انتظرت في السيارة حتى يأتي «كال» ويسحبها إلى الخارج. لم تعد تهتم بشيء. إنه إنسان حقير. أحست به في المقعد المجاور، دون أن تراه بسبب دموعها، وعندئذٍ قال:

– حسنا جدًا. لقد أوضحت ما تريدين. بربك أوقفي هذا النحيب! قطعت المفاجأة بكاءها. تمخّطت بمنديل ورقي وقالت:

– لقد أجبرتني.. وأخذت تبحث عن منديل آخر في حقيبة يدها.

– هاك منديلي. فأخذته ومسحت به دموعها وأنفها، وقالت في نفسها: «كم أكرهه الآن!» وجاهدت كي لا تطلق الجملة في وجهه. سمعته يدير آلة التسجيل، فانسابت موسيقى خفيفة في السيارة. خفف «كال» الصوت قليلا وقال لها وقد التقت عيناه عينيها الدامعتين:

– حسنا أيتها القطة المتوحشة. خففي من روعك الآن. وتساءلت في نفسها عن رد فعله فيما لو ضربته بقوة. وكانت الرغبة عميقة بحيث اضطرت إلى التشبث بحقيبة يدها كي تمنع نفسها من الضرب. ولأنه لم يتوقع جوابا منها، أدار محرك السيارة وانطلق بسرعة فائقة عائدا إلى «دينستون هاوس». واستقرت «فانيسا» في مقعدها ويداها تضغطان على المنديل والحقيبة. إنها منهكة للغاية وتريد بعض الراحة بالحاح. وعندما استلقت «فانيسا» في سريرها ذلك المساء، وقبل الاستعداد لتناول العشاء، عادت إلى ذاكرتها أحداث اليوم بشكل مؤلم وواضح. لقد استطاعت منع نفسها من التفكير بعد عودتها إلى «دينستون هاوس»، إذ رفضت اقتراح «كال» بأخذ قسط من الراحة، وتركته فور دخولها البيت، وأمضت طيلة ما بعد الظهر في المكتبة. وبحلول الساعة الرابعة أحضر لها فنجان القهوة بنفسه، وسألها عمّا إذا كانت تشعر بالألم، ثم تركها. كانت تعابير وجهه حينئذ هادئة وخالية من القسوة التي أبداها عند التل. لم تعد قادرة على التمثيل الآن، فقد هاجمتها مخاوفها دفعة واحدة وهي مستلقية

في سريرها. من الواضح أنه يشك فيها، لكن بأية طريقة؟ لقد قال –وجاهدت لتنظيم أفكارها المشوشة– ماذا قال تحديدا؟ «أنا أعرف أن اسمك ليس «فانيسا كولينز».. فما هو إذن؟» تنفست بعمق وهي تسترجع كلماته حرفيًا، وكذلك تعابير وجهه التي رافقت تلك الكلمات. كان يتكلم بتهكم واضح، وفي عينيه نظرة تؤكد أنه يعرف كل شيء... بحيث زرع الرعب في قلبها. وأخذت تزن الأمور بمنطق. ما قاله لا يعني أنه اكتشف الحقيقة فعلاً. يمكن أن يعتقد أنني امرأة متزوجة وهاربة من زوجها، والأرجح أنه يفكر هكذا. نظرت إلى يدها، فلم تجد أثرا للخط الأبيض الذي يتركه خاتم الزواج. وفجأة نهضت من السرير وتوجهت إلى علبة مجوهراتها الموضوعة على طاولة الزينة وقلبتها بحثا عن خاتم ذهبي كانت تفتن به دائما. ولما وجدته وضعته في إصبعها وأبعدته عن وجهها لتتأمله مليًا. هذا الخاتم سيفي بالغرض، وعليها أن ترتديه دائما من الآن، وعندئذٍ لن يلاحظ غياب العلامات الصغيرة.

وقبل أن تستعد للعشاء انتزعت الخاتم من إصبعها ودخلت لغسل يديها. تزينت جيدا وارتدت زيًا رماديًا فضفاضا وطويلا يبرز قوامها الرشيق ويجعلها تبدو أكثر أناقة وسحرا. حسبها يقول لها إن «كال» سيثير الموضوع الليلة وقبل عودة جدها غدا، إذا كان فعلاً سيواصل تحقيقاته عن شخصيتها.. والأرجح أن يحدث ذلك على العشاء. فإذا ما بدت في أحلى حالاتها، فستحصل على دفعة كبيرة من الثقة بالنفس هي في أمسّ الحاجة إليها. وقفت أمام المرآة لتضع اللمسة الأخيرة من ظلال العيون وأحمر الشفاه. إنها صارخة الجمال، ولكن جمالها لم يكن مصدر سعادة دائما، بل كثيرا ما سبب لها المشاكل، بحيث وجدت نفسها تحسد صديقاتها ذوات الجمال العادي، فهن لا يواجهن مصاعب كثيرة، ومع ذلك لا يقدّرن هذا الوضع. تنهدت طويلاً وهي تضع أحمر الشفاه. إنها مستعدة للعشاء الآن. ألقت نظرة أخيرة على الغرفة ثم أطفأت الأنوار ونزلت إلى غرفة الطعام. وجدت «كال» في الغرفة مع أناس آخرين، استعادت رباطة جأشها بسرعة بعد صدمة المشاهدة الأولى. على الأقل لن يقدم على خلق المشاكل أمام الناس. كانت هناك امرأتان، أم وابنتها على الأرجح، تجلسان إلى الطاولة التي

أعدت لأربعة أشخاص. شاهدها «كال» فنهض لملاقاتها.

– ها قد وصلت أخيرا. قال العبارة وكأنه انتظرها طويلا. ثم توجه نحوها لمرافقتها إلى المائدة. تنفست «فانيسا» بعمق؛ لأن شيئا ما أشعرها بوجود جو عدائي في الغرفة موجه ضدها شخصيًا.

– السيدة «ماكري»، و«هيثر»، هذه «فانيسا كولينز». وهاتان صديقتان للسيد «ماكلين». تقدمت «فانيسا» نحوهما ويد «كال» على ذراعها. لم يتردد عندما نطق اسمها، بل ذكر اسمها الأول وكأنه اعتاد إياه. مدت يدها اليسرى للسلام لأن اليمنى ما تزال مضمدة. تأملتها السيدة «ماكري» مليًا بعينيها الزرقاوين الحادتين وسط وجه جميل وجذاب.

– كيف حالك يا آنسة «كولينز»؟ لقد تأسفنا للإصابة التي لحقتك اليوم، هل تشعرين بتحسن الآن؟ كانت ترتدي فستانا فضفاضا من الساتان السميك بلون بنفسجي فاقع، وتساءلت «فانيسا» في نفسها عمّا إذا كانت هذه السيدة تعرف أن اللون لا يناسبها أبدا. أما الابنة فقد كانت مختلفة تماما. وعندما التفتت «فانيسا» إليها أدركت على الفور من أين جاء جو العداء ضدها. لم تكن «هيثر ماكري» شابة جميلة فحسب، فتفاصيل وجهها الأشقر كانت كاملة ابتداء من العينين الناعستين تحت رموش كثيفة حتى الشفتين المكتنزتين الحمراوين، وقد تركت شعرها الأشقر الطويل منسدلا على كتفيها وعقدته بربطة حريرية زادتها أنوثة وشبابا. كما ساهم ثوبها الزهري المفتوح في إبراز هذه الصورة، ابتسمت لـ«فانيسا».. وكأن لسان حالها يقول: «حسنا، أنا لا أحبك!» قالت بنعومة وحياء:

– مرحبا، لقد أخبرنا «كال» –ونظرت إلى الرجل الطويل الواقف إلى جانبها– عن الحادث الصغير الذي وقع لك. إنه حادث مؤسف. لكن المعنى وراء هذه الكلمات كان واضحا بالنسبة إلى «فانيسا» التي بدأت تتمنى لو أنها بقيت في غرفتها. المعنى يقول بوضوح: «إن «كال» لي أنا، فراقبي تحركاتك. وأنا مسرورة جدًا للحرق الذي أصاب يدك». ردت «فانيسا» بابتسامة مصطنعة:

– شكرا لك. لقد اعتادت مثل هذه المواقف العدائية، أما إذا اعتقدت الشابة

الشقراء أن «فانيسا» تريد الاستيلاء على «كال» فهي مخطئة تماما. على الأقل، «كال» خصم على مستوى ما، وهو أفضل من هذه الشقراء النحيفة التي تبدو أكبر من «فانيسا» بحوالي سنة، والتي ينبئ شكلها عن الثراء الفاحش الذي يحمل الثقة المبالغ فيها إلى بعض الناس. توجه «كال» إلى خزانة الحائط ثم التفت نحو «فانيسا» وسألها:

– ماذا تشربين؟ أجابته قائلة:

– عصير التوت من فضلك. آه لو يظل لطيفا كما هو الآن، فالحياة تكون رائعة عندها. ولن تجد «فانيسا» ما تشكو منه. دخلت السيدة «بانكس» حاملة طبق الحساء. وأمضى الجميع دقائق في ترتيب مقاعدهم، ثم أدركت «فانيسا» أن السيد «ماكلين» يجب أن يكون هنا على العشاء وإلا فكيف تفسر حضور هاتين الضيفتين؟ وقد تأكد ظنها من خلال الحديث الذي جرى على العشاء بين «كال» والسيدتين في حين ظلت «فانيسا» مستمعة. فقد قررت –بينها وبين نفسها– أن تتصرف بهدوء وألاّ تتكلم إلا إذا خاطبها أحد الحضور. فهي غريبة هنا وليست سوى موظفة، والآخرون كما هو واضح يعرفون بعضهم جيدا. لو أنهم يعرفون الحقيقة، لذابت الابتسامة على شفتي «هيثر». أمسكت «فانيسا» عقال لسانها وتناولت حساءها بحذر بالغ متذكرة ما حدث عند الظهر... ونظرت إلى «كال» فوجدته يحدق إليها. اتسعت عيناها تعجبا، ترى ما هذا التعبير الذي على وجهه؟ خيل إليها أنها ترى معنى محيرا، لكن المعنى اختفى عندما قال:

– الحساء ليس ساخنا كالمرة السابقة؟ اغتصبت ابتسامة وقالت:

– كلا. كان يعمل جاهدا كي يلطف الجو. ومن خلال نظراته إلى الفتاة الأخرى لم يكن الأمر صعبا. من الواضح أن هناك شيئا ما بينهما، خاصة النظرات الدائمة التي كانت تلقيها «هيثر» باتجاه «كال»، والبسمات التي حرصت على أن تلحظها «فانيسا» دائما. أما «كال» فقد لعب دور المضيف بنجاح في غياب السيد «ماكلين». وكان يبدو على السيدة الكبيرة إعجابها بكلام «كال» بحيث طغت ضحكاتها على العشاء كله. وتساءلت «فانيسا» عن الوقت المناسب الذي

يمكنها فيه أن تنسحب إلى غرفتها. فهي متأكدة أنهم لا يريدونها، كما أنها لا تريد أن تبقى معهم أيضا. ولكن تبين أن الهرب مستحيل، فما إن انتهوا من تناول الجبن والبسكويت، حتى اقترح «كال» أن يتوجهوا إلى البهو لتناول القهوة. همهمت السيدة «ماكري» موافقة، في حين ابتسمت «هيثر» لـ«كال» بنعومة بالغة... أما «فانيسا» فقد قالت بهدوء:

– أظنكم ستعذرونني لعدم تمكني من البقاء! ضاقت عينا «كال» وهو يسألها:

– ولكنك ستتناولين القهوة معنا؟

– لا شكرا. العشاء كان ممتازا... لكنني لا أستطيع السهر. ابتسم بهدوء وقال:

– يجب ألاّ نغضب السيدة «بانكس». فهي لن تقبل بأن تجد فنجان قهوة غير مشروب على الطاولة، باعتبار أنها فخورة جدًا بالقهوة التي تصنعها. شعرت «فانيسا» برغبة طفولية في أن ترد عليه قائلة: «يمكنك أن تشرب الفنجانين بنفسك». لكنها لم تفعل بالتأكيد. واكتفت بالقول:

– هل يمكن أن آخذه إلى غرفتي إذن؟ تدخلت «هيثر» بصوت ناعم قائلة:

– بالتأكيد يا«كال». فلا شك في أن «فانيسا» متعبة بعد حادث اليوم. والتفتت إلى «فانيسا» وكأنها تقول: «حظ سيئ.. على كل حال نحن لا نريدك أيضا». استغربت «فانيسا»، وهم يسيرون في الممر المؤدي إلى البهو. كيف يكون «كال» فظًا معها بينما هو ناعم جدًا مع «هيثر»؟ وقالت لنفسها: «كم أن الرجال أغبياء! يكفي أن ترفّ تلك المرأة جفنيها حتى يسرع «كال» إلى الجثوّ بين يديها. على كل هما مناسبان لبعضهما...» واعتقدت أن هذه النتيجة ستعزيها قليلاً، ولكن هذا لم يحصل. وعندما دخلت السيدتان إلى البهو تمهل «كال» ليفسح الطريق أمام «فانيسا»... لكنها توقفت قليلا. ثم استدارت نحوه وقالت:

– السيدة «ماكري» على حق. يدي أتعبتني، ولذلك سأستأذن بالانصراف وآوي إلى فراشي. وأنا متأسفة على فنجان القهوة. رأت عضلات فكيه تتقلص وتشتد، فأدركت أنه غضب من شيء ما. أعطاها هذا الإحساس بعض الارتياح ومكنها من أن تضيف بسرعة:

– وأعتقد أن وجودي غير مرغوب فيه في هذه السهرة... كما أن التلفاز سيعرض فيلما جيدا. ودون أن تنتظر جوابه، دخلت إلى البهو وتوجهت حيث جلست السيدتان وقالت:

– أرجو المعذرة... تصبحان بخير. ولم تنظر إلى «كال» وهي تغادر الغرفة، لكنها شعرت بأنه على وشك أن يلحق بها ويوقفها مثلما فعل فوق التل بعد الظهر. أغلقت باب غرفتها وألقت بجسمها على السرير وتنهدت بعمق. انتهى كل شيء. وفكرت بارتياح: «إذا ما التقيت «هيثر» العزيزة مرة أخرى، فلن أزعج نفسي بمحادثتها». توجهت نحو النافذة وأسدلت الستائر المخملية. ثم أدارت جهاز التلفاز وغرقت في الكرسي الوثير الذي يواجهه. شعرت بالندم؛ لأنها لم تنتظر قليلاً لتحضر فنجان القهوة معها، ولكنها لن تنزل لإحضاره بل تفضل أن تشرب الماء بدلاً من القهوة. ملأت موسيقى البرنامج الكوميدي الذي يعرضه التلفاز جو الغرفة في حين انهمكت «فانيسا» في فك سحّاب فستانها... عندما ارتدت الفستان لم تجد صعوبة في رفع السحّاب. لكنها اضطرت –الآن– إلى استعمال يديها الاثنتين؛ لأن السحاب تعرقل عند الرقبة تماما. فكرت للوهلة الأولى في أن تتسلل دون أن يراها أحد إلى المطبخ وتسأل السيدة «بانكس» أن تساعدها. أسقطت هذه الفكرة وهي تبتسم لسخافتها. الأفضل أن تبحث في الغرفة عن شيء يساعدها؛ مثل: مبرد أظافر أو مقص. وأخذت تقلب كل الاحتمالات المعقولة وغير المعقولة. أسهل احتمال كان أن تنزل وتسأل السيدة «ماكري» أن تساعدها... أسقطته عندما فكرت في ردة فعل «هيثر». فجأة سمعت قرعا على الباب، ودون أن تلتفت قالت:

– ادخلي. لابد أن «كال» قد طلب من السيدة «بانكس» أن تحضر لها القهوة. لكن الصدمة كانت كبيرة عندما التفتت من فوق كتفها لتجد «كال» نفسه حاملاً لها فنجان القهوة ومعه بعض الشوكولاتة:

– آه، هذا أنت؟ وضع الصينية التي كان يحملها على الطاولة المجاورة للباب.

– من توقعت؟ «لوري»؟ سألها بجفاء، وقد اسود وجهه، وتابع: لماذا تحاولين

إزاحة هذا الكرسي؟

– حتى أستطيع مشاهدة التلفاز براحة. ثم تذكرت ضرورة أن تشكره فقالت:

– أشكرك لأنك أحضرت لي القهوة... أجابها مضيفًا:

– والشوكولاتة بالنعناع أيضا. ثم اقترب من الكرسي وحمله على الرغم من ضخامته وثقله وقال لها:

– قولي لي أين تريدينه؟

– آه هنا... إلى اليمين قليلاً.. ممتاز، شكرا لك.. لقد، لقد اعتقدتك السيدة «بانكس»! رفع أحد حاجبيه وقال:

– صحيح؟ أنا متأسف لأني خيبت ظنك. بلعت ريقها وهي تقول:

– كنت أريد... عليها أن تتحرك الآن وإلا فات الأوان.

– لم أستطع أن أفك سحّاب فستاني وأردت أن... ترى لماذا لم يقاطعها كعادته؟ يا له من رجل خبيث! أما هو فقد ظل واقفا يراقبها بهدوء بانتظار انتهاء كلامها. وتابعت تقول:

– كنت سأسأل السيدة «بانكس» إن.. من الأكيد أنه سيرفض مساعدتها. وأخيرا ابتلعت كبرياءها وقالت:

– أرجوك، هل لك أن تساعدني في حل عقدة سحّاب فستاني بالقرب من العنق؟

– بالتأكيد. لم أعرض المساعدة أولاً لئلا يساء فهمي. أدارت ظهرها وهو في طريقه إليها. خيم جو من الصمت على الاثنين، فأحست «فانيسا» بأنه يتمتع بالإحراج الذي أصابها من جراء طلبها. كانت يداه باردتين وسريعتين. حل عقدة السحّاب من أعلى، تردد قليلاً ثم أكمل سحبه إلى أسفل. أحست بنفسه يلفح رقبتها وهو يقول:

– هل يكفي هذا؟

– لست... امتدت يداها إلى الخلف لتجس السحّاب، فالتقتا كفيه للحظات قليلة كانت كافية لبث تيار كهربائي في جسدها.

– إلى أسفل قليلاً، أرجوك. يا الله! ماذا حل بها؟ فقد كانت ترتجف مثل ورقة

شجر في مهب الريح. ابتهلت في داخلها: «أرجوك، ارحل الآن». وأحست بالسحّاب ينحل أكثر.

– هذا أفضل. شكرا لك. واستدارت بسرعة خوفا من أن يحاول أن يحله أكثر مع أنها تعرف أنه لن يفعل، فاصطدمت به. أسرع «كال» بوضع يديه حول كتفيها لمنعها من السقوط، وللحظات وقفا صامتين. وكان إحساس بالتوتر يهيمن عليهما لإدراكهما أن شيئا غريبا يحدث في الغرفة.

– حسنا، يجب أن أذهب الآن لأنضم إلى الضيوف. حطم كلامه الصمت بينهما، فاستدارت «فانيسا» بعيدا في حين سار «كال» نحو الباب مغادرا الغرفة. فتح الباب، تردد قليلاً قبل أن يقول:

– تصبحين على خير. انتزعت وسادة السرير وصفقت الباب بعنف. خيل إليها سماع ضحكته في الممر، فوقفت في مكانها وصدرها يغلي بالغضب، لكنها لم تكن غاضبة تماما، فالشعور الذي ملأ صدرها كان جديدا عليها... إنه مخيف ومثير في آن واحد. اعتقدت «فانيسا» أنها ستأوي إلى فراشها مبكرة. وبعد أن خلعت ملابسها جلست في المقعد الوثير تحتسي قهوتها مع ألواح الشوكولاتة بالنعناع. أحست بالتعب فقررت أن تنام فور انتهاء الفيلم التليفزيوني. ومع مضي الوقت، وجدت نفسها قلقة وغير قادرة على النوم. كانت تسمع صدى أصوات تنبعث من الطابق السفلي دون أن تعرف ما هي. ترى ماذا يفعلون هناك؟ يتحدثون؟ يلعبون الورق؟ وعندما انتهى الفيلم الذي كان مملاً وسخيفا مفسحا المجال للإعلانات، قامت «فانيسا» نحو النافذة وأزاحت الستارة. أمام الباب وقفت سيارة «رولز رويس» فخمة. من الذي يسوقها؟ الأم أم الابنة؟ على كل حال هما ما زالتا في البيت.

وفي لحظة غضب أرخت «فانيسا» الستائر بعنف وأطفأت التلفاز وتوجهت إلى السرير. استلقت في فراشها دون أن تستطيع النوم. وازداد الألم بالتدريج في يدها بحيث لم تعد قادرة على الاحتمال فتوجهت إلى الحمام وتناولت حبتين من الدواء الذي أعطاها إياه الطبيب. وبينما هي عائدة إلى سريرها سمعت همهمات تصدر من أسفل النافذة فتوجهت إليها فورا. رفعت الستارة

بحذر شديد ونظرت إلى الباحة التي أضيئت فجأة فانعكس النور على لون «الرولز رويس» الذهبي، وهناك وقف ثلاثة أشخاص: السيدة «ماكري» و«هيثر» و«كال». كانوا يتحدثون، وأحدهم يضحك عاليا. لمست «هيثر» ذراع «كال» الذي انحنى نحوها كأنه يريد سماع كلمات خاصة منها... ومع أن «فانيسا» أرادت أن تبتعد عن النافذة إلا أنها لم تستطع. وأخيرا لوحت السيدة «ماكري» بيدها، ففتح «كال» باب السيارة الخلفي لها. دخلت «هيثر» خلفها بعد أن تمهلت لتتبادل عناقا قصيرا مع «كال». أغلق باب السيارة، فأنزلت «هيثر» زجاج الشباك وقالت شيئا ما لـ«كال» الذي رد بضحكة طويلة. إذن هناك سائق خاص لقيادة السيارة؟ ولماذا لا؟ راقبت «فانيسا» السيارة وهي تتحرك باتجاه الباب الخارجي. وكانت على وشك أن ترخي الستارة، لكنها ترددت قليلاً لتتأمل «كال» الذي انعكس ظله على الباحة الأمامية.

كيف اعتقدت أنه ليس قويًا؟ إنه يبدو الآن كحيوان شديد القوة ملي، بجاذبية لا يمكن إنكارها أبدا. وفجأة استدار والتفت إلى أعلى... مباشرة باتجاه «فانيسا». نظر إليها لثوان قبل أن يبتسم ويختفي داخل البيت. قفز قلب «فانيسا» بشدة وهي تبتعد عن النافذة. لقد شاهدها الآن، فكيف يفكر في ذلك؟ اعتقدت أنها لن تنام بسرعة، لكن حبتيْ الدواء أعطيا مفعولهما الفوري. وغرقت في كوابيس مزعجة دارت كلها حول وجهين، أحدهما لرجل عجوز لم تره بعد، والآخر لشاب قوي الملامح أصبح مألوفا لديها تماما.

استيقظت مبكرة، لكنها ظلت مستلقية تسترجع أحداث اليوم الماضي. وفجأة اعترتها رعشة باردة فانتصبت جالسة. لقد تذكرت أنها ستلتقي جدها بعد ساعتين تقريبا. لن تستطيع أن تتراجع الآن فقد فات الأوان. وداهمها شعور آخر بالانزعاج عندما فكرت في «كال». فهذا الرجل سيراقبها بدقة؛ إذ إنه يشك فيها دون أن تعرف لماذا. لعله حدس وجود شيء غير طبيعي في تصرفاتها؛ ولذلك عليها أن تتصرف بأعصاب باردة وهدوء تام. فهل تستطيع أن تنجح في هذه المهمة؟ حاولت أن ترخي أعصابها وهي تغسل وجهها وترتدي ملابسها. إنها تحتاج إلى كل ما تختزن من إرادة، خاصة خلال اليومين المقبلين،

وستراقب «كال غرين» بحرص بالغ في هذه الفترة. عليها أن تتناول الإفطار بسرعة وتبدأ عملها في المكتبة؛ لأن الكتب ستساعدها على التفكير المستمر في «كال» وجدها. كانت تتوقع أن تكره المكتبة خاصة أنها قبلت الوظيفة كوسيلة لتنفيذ مآربها، لكن هذا لم يحدث. لقد وجدت متعة فائقة في التعامل مع الكتب الأنيقة وقراءة عناوينها والرجوع إلى الماضي كما كان؛ إذ ليس هناك أفضل من كتاب يعيد إحياء الماضي في لحظات. كما كانت هناك مئات الصحف القديمة التي دلها عليها «لوري» في إحدى الزوايا، وبعضها يعود إلى أوائل القرن الثامن عشر. وقد تشوقت «فانيسا» إلى العمل فيها وترتيبها حسب التسلسل الزمني. ولا شك في أن هذه المجموعات قيمة جدًا، لكن هل يعرف جدها قيمتها الحقيقية؟ هذا ما ستعرفه قريبا.

وبينما هي تنزل السلم متمهلة باتجاه الطابق السفلي سمعت بابًا يفتح، فتوقفت. هل هذا باب غرفته؟ لقد سمعت صوت محرك سيارة وهي تستحم، لكنها لم تشاهد شيئا أمام المنزل عندما نظرت من النافذة. وفجأة اعتراها شعور بالضياع والارتباك.

– صباح الخير. داهمها الصوت بحدة وهي تنزل الدرجات الأخيرة وتلتقي مواجهة مع الرجل الآتي من البهو. ارتاحت قليلاً عندما رأت أنه «كال». كان يرتدي صدارًا صوفيًا أبيض فوق قميص أبيض أيضا. بدا لها جذابا أكثر من ذي قبل، وعرفت على الفور لماذا أعجبت «هيثر» بهذا المخلوق القوي. ابتسم لها، فأعادها فورا إلى حالة الترقب والاستنفار.

– أعتقد أن السيد «ماكلين» لن يكون معنا على الفطور، لكنك ستريْنه لاحقا.

– ألم يحضر بعد؟

– بلى، لقد حضر. بدت عيناه الخضراوان بلون رمادي غامق من تأثير الضوء القوي. لكن «فانيسا» كانت مهتمة أكثر بالنظرة المتمعنة التي أطلقها نحوها. وتذكرت أنه رآها مساء أمس وهي واقفة بالنافذة. نزلت الدرجة الأخيرة وسارت باتجاه غرفة الطعام. ولأن ساقيه كانتا طويلتين فقد تمهل في سيره كي يبقى في موازاتها.

– كيف حال يدك اليوم؟ هل تشعرين بتحسن؟

– نعم، شكرا لك.

– هل طلب منك الدكتور «إينيس» مراجعته مرة أخرى؟ خففت سيرها ونظرت إليه. كانا قد وصلا تقريبا إلى باب غرفة الطعام. قالت:

– طلب مني أن أغير الضمادة يوميًا، وأن أبلغه على الفور بأي شيء طارئ. ولا أتوقع حدوث التهابات؛ لأن جراحي تلتئم بسرعة.

– ممتاز. وهل تستطيعين لف الضمادة؟ ألا تريدين أية مساعدة؟

– لا، شكرا. وابتعدت عنه؛ إذ بدا لها للحظة وكأنه سيمسك ذراعها، وهي لا تريد أن يمسها أبدا. لم تكن السيدة «بانكس» في أحسن حالاتها في تحضير الفطور. لعل ذلك بسبب عودة صاحب البيت، فربما كانت مهتمة بإعداد فطور خاص له ليتناوله في غرفته. وتساءلت «فانيسا» عن المكان الذي كان فيه جدها. من المحتمل أنه كان مسافرا. إنها لا تعرف طبيعة الأعمال التي يقوم بها، خاصة أن أباها تكتم جدًا في هذه الناحية.

– هل أنت قادرة على تقسيم قطعة الجبن؟ فاجأها سؤاله:

– ماذا؟ آه، أجل أستطيع تدبر أمري.

وقالت في سرّها: «وكأنني سأسمح لك بأن تقوم بالمهمة عني». وتساءلت عما سيحدث في عطلة نهاية الأسبوع، هل سيطلب منها العمل خلالها؟ من الممكن أن تقبل العمل صباح السبت، أما بعد الظهر ويوم الأحد فلا. قررت الخروج بسيارتها إلى نزهة غير بعيدة، بعد ذلك ستقرأ، ثم تكتب رسائل إلى الأصدقاء أو تكتفي بمشاهدة التلفزيون في غرفتها... على الأقل ستكون هناك في مأمن من إيحاءات «كال» ونظراته الباردة المتحدية. رفعت عينيها فجأة فوجدته يحدق إليها، وتشابكت نظراتهما للحظة في حوار صامت غريب. حبست «فانيسا» أنفاسها. ما هو المعنى الذي تحمله نظراته؟ هناك شيء لا تستطيع فهمه. لم يكن العداء الذي عهدته منه، وحتى لو كان كذلك فإنه عداء خفي... وإلى جانبه تعبير لم تتعوده من قبل؛ إذ لم يكن هناك ذلك الإعجاب الواضح الذي يظهر في نظرات معظم الرجال. أعادت نظرها إلى صحن الجبن وتشاغلت

بالأكل. ستريه أنه لا يستطيع إزعاجها. فقالت له:

– سأباشر العمل في المكتبة بعد الفطور. ونظرت إليه مباشرة بعد أن استعادت رباطة جأشها.

– ممتاز. وأعتقد أن «لوري» سيكون هناك للمساعدة. على فكرة كيف تسير أمور العمل؟

– على ما يرام، وهو يساعدني كثيرا. لقد اكتشفت أن ترتيب الكتب أمر مثير للاهتمام أكثر مما كنت أتصور. وقطعت جملتها. لماذا تزعج نفسها بإخباره عن العمل؟ ابتسم وكأنه يشجعها على المضي في حديثها:

– إذن أنت مستمتعة بعملك؟ إنه قادر على استفزازها بكلمة يقولها فحسب أو تعبير يظهره... والأسوأ من ذلك أنه يعي قدرته تلك. وقد أدركت «فانيسا» أنه تعمد الاستفزاز من جديد.

– ولم لا؟ فالكتب مثيرة للاهتمام. وتابعت ببرود:

– أم أنك لا تجدها مهمة فعلاً؟ هز رأسه موافقا:

– أنا مهتم جدًا، خاصة بالكتب التي تتحدث عن الدول الأجنبية.. والتي ستجدين عددا كبيرا منها في المكتبة. أجابته وقد نسيت استفزازه السابق:

– لقد فرزت عددا منها من بين الكتب التي أحصيتها حتى الآن. وفكرت فيه، إنه يبدو جذابا جدًا في بعض الأحيان. وتابعت:

– أحد هذه الكتب قديم جدًا وبحالة سيئة للغاية.

– إن بعض الكتب قديمة ومغطاة بالغبار، لذلك أقترح عليك أن تبقي الضمادة إلى ما بعد انتهاء العمل ثم تغيّرينها في المساء. نظرت إلى يدها وقد أعجبها الاقتراح فقالت:

– سأفعل ذلك.

– ولا تحاولي أن تحملي الكتب بيدك المصابة، ليس خلال اليومين المقبلين على الأقل.

– لن أفعل. أريد أن أسأل: هل تعرف ما هي ساعات عملي غدا باعتبار أنه السبت؟

www.rewity.com

– لا. على كل حال ستتفاهمين مع السيد «ماكلين» حول ذلك، فهذا ليس من اختصاصي. لكني لا أعتقد أنه سيصر إذا ما أردت الراحة غدا. هل هناك مكان محدد تريدين زيارته؟ نظرت إليه:

– تقصد زيارة أحد ما؟ لا، فأنا لا أعرف أحدا هنا. ربما خرجت في نزهة لاستكشاف الريف الاسكتلندي... وهذا كل شيء. رفع أحد حاجبيه قليلاً وهو يقول:

– وحدك؟ حتى بعد الذي تعرضت له مؤخرا؟

– لا أعتقد أنني سألتقي الشابين مجددا، على الأقل ليس في الجوار. واعترف قائلا:

– معك حق. فلم يحصل أن حدثت مثل هذه الأمور في المنطقة. لكن من الممكن أن تضيعي في الريف الواسع! ابتسمت وهي تقول:

– هل لديكم خريطة؟ صدق أو لا تصدق، لقد جئت من «لندن» إلى هنا مستعينة بالخريطة فقط. والواقع أنني خبيرة في قراءة الخرائط وإشارات السير. وأبقت الابتسامة على شفتيها، لكي تشعره بأنها لامبالية. ضحك «كال» عاليا:

– أنا متأكد من خبرتك. ثم رفع وعاء القهوة وسألها:

– مزيدًا من القهوة؟

– نعم. وراقبته وهو يسكب القهوة ثم يضيف بعض الحليب (اللبن). وفجأة انفتح الباب ودخل رجل في الستينيات من العمر، طويل القامة وأشيب الشعر. ولم تكن «فانيسا» تحتاج إلى من يخبرها بأن هذا الرجل هو جدها.

- 5 -

خشيت «فانيسا» أن تظهر على وجهها آثار الصدمة التي أصابتها، في حين وقف الرجل عند الباب لثوان معدودة. أحست بأنها ترى والدها مرة أخرى لكنه أكبر عدة سنوات. كل شيء بدا لها مألوفا: الطريقة التي يقف ويمشي بها، الوجه النحيف ذو التقاطيع الحادة، والعينان الزرقاوان النافذتان تحت

حاجبين كثيفين. وأخيرا تكلم:

– هأنتما هنا معا. وحتى صوته بدا مألوفا بحيث شعرت برغبة في القفز إليه وإخباره عن شخصيتها... لكنها تمالكت أعصابها، فقد كان «كال» يراقبها، ثم استدار إلى الرجل القادم ووقف له. سار «آندرو ماكلين» باتجاههما:

– صباح الخير يا«كال». ثم حول نظرته الحادة إلى «فانيسا» وقال:

– صباح الخير يا آنسة «كولينز». اضطرت «فانيسا» إلى مصافحته عندما استدار نحو الطاولة، فاعتذرت له؛ لأنها استعملت يدها اليسرى... وكانت ساقاها ترتجفان.

– هل تريد فنجانا من القهوة يا سيد «ماكلين»؟ سأله «كال» وهو يسحب له الكرسي حول المائدة.

– بالتأكيد. لقد شربت فنجانا في غرفتي، ولكن لا مانع عندي من فنجان آخر. استدار نحو «كال» الذي انشغل بسكب فنجان القهوة، ثم التفت نحو «فانيسا» مرة أخرى وهو يقول لها:

– أعتذر لأنني لم أكن هنا لاستقبالك، وأتمنى أن يكون «كال» قد قام بالواجب. هل جال بك في البيت؟

– أجل، شكرا لك. كنا نتحدث عن أهمية الكتب الموجودة في المكتبة.

– إذن أنت تجدينها لافتة للنظر؟ هذا جيد؛ لأنني أؤمن دائما بأنه من الأفضل للإنسان أن يعمل في المجال الذي يحبه. هل واجهتك أية مشاكل؟

– كلا يا سيد «ماكلين». كان عليها أن تنطق اسمه –أو بالأحرى اسمها– في وقت ما. وكلما بكرت كان الأفضل. وعندما فعلت لم تجد الأمر صعبا كما كانت تتخوف.

– لكن حادثا مؤسفا وقع ليدك! أنا متأسف لذلك. كان الاهتمام الحقيقي واضحا في صوته.

– كانت غلطتي في الأساس. وأنا متأكدة أنها ستتحسن خلال أيام قليلة... والحادث لن يؤثر في استمرار العمل. اعتقدت في البدء أنها لن تستطيع التحدث إليه بشكل طبيعي، لكنها استطاعت. وكانت ستجد الأمور أكثر سهولة لو أن

www.rewity.com

«كال» غير موجود، هذا الرجل غير المتوقع الذي خلق لديها شعورا بالذنب وعدم الارتياح والذي يبدو أنه يستمتع بذلك. وهنا تدخل «كال» قائلا:

– «لوري» يساعد الآنسة «كولينز» الآن.

– حقًا؟ أعطاها جدها ابتسامة خفيفة وقال:

– يظهر أنني أسأت فهمه، لقد رفض في البدء باعتبار أنه مشغول جدًا.

– لعله اكتشف أنه يستطيع تدبر أمره على أي حال. ولم يكن في صوت «كال» أي معنى، لكن «فانيسا» فهمت مقصده وتمنت لو أنه يغادر الغرفة. والآن، بعد أن زالت صدمة رؤية جدها لأول مرة، وجدت نفسها تراقبه في محاولة لتبيّن ملامحه بعيدا عن أية مشاعر شخصية، كما لو أنه غريب تماما. فهذا ما يجب أن تفعله إذا أرادت ألا تنكشف قبل أن يحين الموعد الذي لم تحدده بعد. اكتفت «فانيسا» باحتساء قهوتها بينما كان «آندرو ماكلين» يسأل «كال» عن أحوال البيت وعن الضيفتين اللتين زارتاه أمس. رد «كال»:

– لقد انزعجتا قليلا، لأنك لم تكن هنا، لكني حاولت قدر جهدي أن أهتم بهما. التفت إلى «فانيسا» مبتسما، فردت عليه بنظرة باردة.

– سأتصل بهما هاتفيًا في وقت لاحق. لم يكن بالإمكان الحضور أمس، فالرحلات من «باريس» محجوزة كلها. ابتلع آخر رشفة من قهوته ووقف قائلا:

– يجب أن أذهب لأداء بعض الأشغال. أراك فيما بعد يا آنسة «كولينز». وغادر الغرفة مثل جندي طويل يسير ثابت الخطى. خيّم الصمت بعده للحظات، ثم نهضت «فانيسا»:

– يجب أن أبدأ العمل. وفجأة خطر على بالها خاطر. التفتت إلى «كال» وسألته:

– ماذا عن الغداء؟ نهض ببطء وهو يقول:

– الغداء؟ ماذا تقصدين؟ كانت تود أن تقول له: «أنت تعرف تماما ما أقصده، لكنك تجد متعة في لخبطة الأمور بالنسبة إلي». لكنها قالت:

– أقصد أين سأتناول الغداء؟ في غرفتي؟ رفع حاجبيه ببطء:

– هنا مثلما فعلت أمس. تنفست «فانيسا» بعمق وهدوء:

– لقد عاد السيد «ماكلين» الآن. كان لطفا منك أن تدعوني إلى غرفة الطعام أول مرة، لكني لست سوى موظفة في هذا البيت وأتوقع أن...

– موظفة؟ يا لها من طريقة رائعة للتعبير عن الذات! صحيح أنك موظفة، لكن هل تعتقدين أن ذلك يعني دعوتك إلى المطبخ لتناول الطعام في إحدى زواياه؟ أحست بأن دمها يغلي وهي تكبح جماح غضبها. يا له من رجل مكابر وعنيد!

– أنا متأكدة أنك تعرف ما قصدته. أنت ضيف هنا، ولا أعتقد أنك تقدّر موقفي.

– ألا أقدره فعلا؟ وضاقت حدقتاه بغضب وهو يضيف:

– ستفاجئين إذا عرفت أن السيد «ماكلين» سيندهش، بل سيغضب، إذا ما اقترحت تناول طعامك في أي مكان آخر. ولم يعد في يدها حيلة. كيف يمكن أن تخبر رجلا كهذا بأنها لا تريد أن تأكل معه، لأنه يخيفها؟ إنها لا تستطيع، وعليها قبول الواقع. ودون أن تتفوه بكلمة استدارت خارجة من الغرفة. وقبل أن تصل إلى الباب كان هو هناك أولا، وقال لها:

– اسمحي لي أن أفتح لك الباب.

– شكرًا لك. وخرجت بسرعة دون أن تنتظر لترى ما إذا كان يلحق بها، قاصدة المكتبة لتبدأ العمل. فهناك، وهناك فقط، ستجد نفسها قادرة على التفكير في الرجل الذي التقته اليوم لأول مرة، الرجل الذي هو جدها، ولكنه لا يعرف ذلك. أغلقت الباب وراءها ورمت الحقيبة على أحد المقاعد. ارتدت الرداء الواقي من التراب وتساءلت عما إذا كان «لوري» سيأتي لمساعدتها، ومتى. أحست أن الحادث الذي جرى بينهما أصبح من الماضي، مع أنه وقع بالأمس فقط. وكم تتمنى الآن لو أنه لم يحدث قط! لقد عمل بنشاط وقدم مساعدة قيمة، لكنها في غنًى عن أية إشكالات جديدة قد تزيد من اضطرابها الداخلي؛ ولذلك قررت أن تقمع على الفور أية محاولة جديدة منه، إذ تكفيها المشاكل مع «كال» وظهور جدها المفاجئ. كانت منهمكة في العمل عندما قرع «لوري» الباب ودخل، حيته بابتسامة صداقة وقالت:

www.rewity.com

– صباح الخير يا«لوري».

– صباح الخير. ركز نظره في يدها المصابة وقال:

– كيف حالك اليوم؟

– أفضل قليلا، شكرا لك. لكنها عادت وتساءلت:

– كيف عرفت؟

– إذا قضيت وقتا طويلا هنا فستكتشفين أن الأخبار تنتقل بسرعة في هذا البيت. على كل، الطاووس يفزع كل الناس. المهم أن تكوني حذرة فيما يتعلق بيدك، وأنا سأقوم بكل ما يلزم.

– شكرا لك. يجب أن نبدأ أولا بالكتب التي أنزلتها؛ إذ إنني كنت بطيئة بالأمس. من الأفضل لها أن تركز الحديث في العمل والكتب. ووجدت «فانيسا» الفرصة لتكتشف الجانب الآخر من «لوري» الغارق في غبار العمل. إنه يحب الكتب فعلا، كما أنه يجتهد للتصرف بشكل طبيعي وكأنه أحس مزاجها المتعكر اليوم. مضى قبل الظهر بسرعة، بحيث فوجئت «فانيسا» عندما فتح الباب ودخل جدها إلى المكتبة. وعندما شاهده «لوري» توجه للسلام عليه.

– صباح الخير يا سيد «ماكلين». إن شاء الله كانت رحلتك موفقة؟

– أجل، وشكرا يا«لوري». يظهر أنك مشغول أيضا. هل تعرف كم الوقت الآن؟ واندهشت «فانيسا» عندما عرفت أن الساعة تجاوزت الواحدة، وعليها أن تغتسل. نهضت عن الأرض وهي تقول:

– أنا آسفة، لقد استغرقنا في العمل.

– أعرف ذلك، لكن يجب أن تأكلي يا بنتي، فهيّا بنا. الكتب ستظل هنا عندما تعودين! وانتظر بالباب حتى خرجا. حمل «لوري» سترته ووقف ينتظر خروج «فانيسا» لكن كُمّ الرداء الواقي علق بالضمادة، بحيث اضطر «لوري» إلى مساعدتها.

– شكرًا لك. وأدركت «فانيسا» أن شيئا مما دار لم يفت جدها. قطعت المسافة إلى غرفتها ركضا ثم غسلت وجهها وفكت الضمادة عن يدها وعادت مسرعة إلى غرفة الطعام لتجد الرجلين على وشك الانتهاء من الحساء.

– أنا آسفة. لكن «آندرو ماكلين» قاطعها بإشارة من يده وقال:

– لا ضرورة للاعتذار. من الجميل أن نجد إنسانا يحب عمله إلى الحد الذي عنده ينسى الوقت. ثم نظر إلى «كال» وقال:

– ما رأيك أنت؟

– بالتأكيد.. بالتأكيد. كانت عيناه تراقبان «فانيسا» وكأنهما تسخران منها. ثم أضاف فجأة:

– هل عملت من قبل في مثل هذا المجال؟

– كلا. لقد رددت القصة المختلفة في ذاكرتها لأكثر من أسبوع، والآن سترى إن كانت ستبدو معقولة في نظر الآخرين. يجب ألا تظهر شعورها بالقلق:

– عملت سكرتيرة لمدة عامين، ثم قررت التغيير بسبب بعض المشاكل في العمل. حتى الآن القصة حقيقية تماما، ولكنها لن تخبرهما عن طبيعة المشاكل التي واجهتها، ثم تابعت:

– أخبرني صديق يعمل في مكتب محاماة يدعى «مورتون وسميث وكيمبل». وترددت أمام هذه الأسماء كي تبدو غريبة عنها، ثم تابعت:

– بأن سيدا اسكتلنديا هو أنت –وأشارت مبتسمة إلى السيد «ماكلين»– يريد أن يعيد ترتيب مكتبته. وقد تقدمت إلى هذه الوظيفة لأنني أحب الكتب. وضع جدها ملعقة الحساء من يده وتناول قطعة خبز وقال:

– إذن أنت تعرفين شخصا يعمل في مكتب المحاماة؟

– أجل. إنها السكرتيرة. ليست صداقة حميمة بقدر ما هي معرفة عادية. ولم تكن «فانيسا» كاذبة؛ إذ إن «بات جونز» تعمل سكرتيرة في المكتب، وهي لا يمكن أن تفضح حقيقتها... مع أن المعلومات الحقيقية جاءت من السيد «مورتون» نفسه.

– وهل أخبرتك بأشياء أخرى؟ أطلق هذا السؤال تجاهها في حين أن «كال» كان يراقبها. صحيح أنه لم يكن ينظر إليها مباشرة، إلا أن تركيزه في سماعها كان واضحا للغاية. وقالت أول كذبة:

– لا. لكني لم أفهم، هل تقصد أشياء أخرى عن العمل؟ حك «آندرو ماكلين»

خده وقال:

– لا. لا شيء. والآن أخبريني يا«فانيسا»، هل هناك مانع عندك بأن أناديك باسمك المجرد؟ كيف ترين الكتب؟ أقصد هل هناك تلف؟

استمعت إليه بتمعن. أسئلته كانت معقولة وموزونة ومركزة حول العمل الذي تقوم به... لكنها أحست بجو خفيّ من التوتر يسيطر على الغرفة، وهي تعرف مصدره. كان «كال» يفكر بعمق. أية أسئلة أو أجوبة سيطرحها هذا الرجل؟ مهما كانت طبيعتها فإنه لن يلقيها الآن، بل سينتظر الفرصة المناسبة للإيقاع بـ«فانيسا» كما فعل في اليوم السابق. راقبته بحذر. يجب أن تكون مستعدة له في المرة المقبلة. لكن متى سيكون ذلك؟ أخبرها جدها في وقت لاحق من اليوم نفسه بأنها حرة يوم السبت. كانت الساعة الثالثة تقريبا عندما دخل عليها المكتبة وهي وحدها؛ إذ إن «لوري» لم يكن قد عاد من الغداء بعد. ولانشغالها في العمل لم تنتبه لدخوله، لكن سعلة خفيفة منه جعلتها تلتفت لترى وجهه النحيف. وكما في كل مرة تراه، أحست برعشة من الاشمئزاز ممزوجة بمشاعر الخوف. ماذا لو اكتشف الحقيقة قبل أن تكون مستعدة؟ قالت وهي تضع القلم من يدها:

– أنا آسفة. هل تريدني؟ لم أكن أدري أنك...

– لقد دخلت بهدوء حتى لا أزعجك. وابتسم لها، إنها نفس ابتسامة أبيها.

ثم تابع يقول:

– ثم وقفت أتأمل بإعجاب النشاط الذي تمارسين به عملك. نظرت «فانيسا» إلى لائحة الكتب الموضوعة على الطاولة. لم يكن عندها ما تقوله؛ إذ إن عقلها تحول فجأة إلى لوح أبيض فارغ. وفكرت في أنها ستفشل حتمًا إذا ظلت على هذه الحال خلال الأيام القليلة المقبلة. لم ينتبه «آندرو ماكلين» إلى صمت «فانيسا» بل تابع قائلا:

– أنت حرة غدا، وبالتأكيد الأحد أيضا. أعرف أن وسائل الترفيه غير متوفرة في المنطقة، لكن أرجوك ألا تترددي في استعارة أي كتاب تودين الاطلاع عليه.

وعندئذٍ زال الجمود عن «فانيسا» وتذكرت:

– أجل، هناك مجموعة من الجرائد القديمة موضوعة في صندوق كرتوني دلني عليها «لوري»... وأتمنى أن أطلع على البعض منها. تغير وجه «ماكلين» القوي بسرعة، وبدت على ملامحه تعابير الانشراح والسرور الطفولي.

– يا الله... الجرائد! إنها تحتاج إلى الترتيب أيضا. هل تعرفين أن لدي نسخًا من صحيفة تدعى «أوكسفورد غازيت» يعود تاريخها إلى العام 1665؟ الحقيقة أنني نسيت كل شيء عنها. وهز رأسه متابعا:

– أتمنى أن تقومي بترتيب هذه المجموعات أيضا. لا شك في أن سنوات عديدة مضت منذ... وأطرق فجأة، وبدت على وجهه ملامح الحزن. لم تشأ «فانيسا» أن تخرق جو الصمت لأنها شعرت بوجود هذا الحزن المفاجئ... فحبست أنفاسها وانتظرت، فهي تعرف لماذا!

– مضى زمن طويل.. طويل! مرت لحظات الحزن وعادت الأمور إلى طبيعتها.

– بالتأكيد. افعلي ما يحلو لك. وإذا أردت أن تحملي بعضها إلى غرفتك، فـ«كال»... والتفت نحو الباب حيث كان «كال» واقفا.

– لقد كنت أقول لـ«فانيسا» إنها تستطيع استعارة أية صحف. فهل لك أن تحمل إلى غرفتها كل الصحف التي تريد الاطلاع عليها؟

– بالتأكيد. ونقل «كال» نظره من «فانيسا» إلى جدها وأضاف:

– أنا آسف للدخول عليكما هكذا، لكن السيد «ماكري» على الهاتف، وقد حولت الخط إلى مكتبك.

– شكرا. وخرج «آندرو ماكلين» من المكتبة تاركا «فانيسا» و«كال» معا. استدارت بسرعة إلى عملها؛ لأنها لم ترد له أن يرى وجهها خوفا من أن يلحظ المشاعر التي اختلجت فيها قبل قليل... كما أنها تحتاج إلى وقت للتفكير. قاطعها الصوت العميق الناعم:

– هل تريدين نقل الصحف إلى غرفتك الآن؟

– لا. شكرا لك. لم تلتفت إليه، لكنها أحست بحركاته وهو يتوجه نحوها، ثم أدركت أنه بات خلفها تماما.

www.rewity.com

– هل تريد شيئا مني؟

– كلا، أتأمل ما تقومين به فقط. كان الصوت ينبعث من وراء كتفيها. وأحست «فانيسا» بأنها تخطئ بجمودها هذا، لذلك طوت اللائحة بسرعة واستدارت لمواجهته، ثم قالت:

– إنني أسجّل الكتب يا سيد «غرين». سحب كرسيًا مجاورا وجلس قبالتها وفي عينيه نظرة سخرية واضحة:

– السيد «غرين»؟ ألا تفضلين اسم «كال»؟ أجابته بهدوء:

– ليس بالضرورة، فأنا لا أعرفك تماما. لكنها تعجبت مرة أخرى.. كيف يشعرها هذا الرجل بالضعف عندما يكون إلى جانبها؟! تماما كما هو حاصل الآن. قال وهو يحرك يديه في جيبيْ سرواله:

– لكنك تنادين «لوري» باسمه الأول فقط!

– هذا شأني وحدي. ونظرت مباشرة إلى «كال غرين» وهي تبتسم بهدوء وشماتة. إنها تدرك تماما أن ذكر «لوري ماكينزي» يثير غضبه بشكل سريع وفعال. وأضافت تقول:

– إن أمورنا تسير على ما يرام. ارتفع حاجباه الأسودان، لكن وجهه الأسمر ظل دون تعابير واضحة:

– بالتأكيد، أما أمورنا نحن فليست كذلك.

– لا أعتقد. راقبته وهو يفتح علبة سجائر، وعندما قدم لها سيجارة هزت رأسها بالرفض وقالت:

– كلا. شكرا لك. ثم أضافت:

– الحقيقة أنك تحاول دائما أن تكون قاسيًا وفظًا معي. وتابعت في نفسها تقول: «بينما المطلوب مني أن أظل هادئة». قال:

– أعتقد أنك تتحدثين عما جرى بعد ظهر أمس! أشعل سيجارته من الولاعة التي أضاءت جانبا من وجهه، فبدا الجانب الآخر أكثر سمرة وصرامة.

– أجل. من الأفضل أن تنقل المعركة إلى معسكر الخصم، فلا شك في أنه يعد شيئا ما لوقت لاحق. ففي المكتبة، تشعر «فانيسا» لسبب من الأسباب بأنها

على أرض آمنة، أكثر أمنا من ذلك التل الأخضر المشمس الذي أشعرها بأنها ضعيفة للغاية خاصة بعد احتراق يدها. وأنهت كلامها بقولها:

– لقد كنت فظًا بشكل يفوق التصوّر خاصة أني كنت في حالة يرثى لها بسبب يدي، وأعتقد أنك تعمّدت ذلك.

– أجل، تعمدت ذلك. تعجبت. كانت تتوقع منه أن ينفي لا أن يعترف بسهولة، رمته بنظرة حادة، وظلت للحظات عاجزة عن الكلام، ثم أطلقت لسانها:

– إذن، كان موقفك سخيفا وغبيًا.

– أنا أوافق. سحب نفسا عميقا من السيجارة، والتفت يبحث عن منفضة ولما وجدها وضعها إلى جانبه، ثم قال:

– لكن لدي أسبابي الخاصة.

– حقًا، وهل لي أن أعرف ما هي هذه الأسباب؟ أجابها بهدوء مثير:

– أنت تعرفينها تماما، أليس كذلك؟ وعاود «فانيسا» ذلك الشعور البغيض بأنها على وشك أن تفقد السيطرة على نفسها. لكنها هي التي بدأت المعركة وعليها أن تستمر فيها:

– هل تعتقد أنني لصة أو أي شيء مماثل؟

– لصة؟ ردد الكلمة وكأنه يفكر فيها، ثم ابتسم ببطء شديد وهو يقول:

– لا، ليس كذلك، على الأقل لم أعتبرك لصة... حتى الآن. اشتعلت بالغضب بفعل الطريقة التي أطلق بها الكلمة الأخيرة، وخرجت التعابير من فمها قوية قاسية:

– وماذا بعد؟ أجابها قائلا:

– لست أدري، ولكني سوف أعرف! ردت عليه بلهجة آمرة:

– لماذا لا تغادر هذه الغرفة فورا وتتركني وحدي؟ لست مضطرة إلى سماع إهاناتك، بل لست مضطرة إلى سماع أي شيء منك، هل تفهم؟ وقفت في وجهه وعيناها تقدحان شررا، وتمنت لو أنها رجل لتلقنه درسا لا ينساه. ويبدو أن بعضا من أفكارها وجد صدى لديه بحيث وقف في مواجهتها دون أن يتخلى

www.rewity.com

عن هدوئه. والآن عليها أن تنظر إلى أعلى كي تراه، وهذا شيء تكرهه؛ لأن طوله الإضافي يشعرها بأنها أصغر منه وأضعف أيضا:

– اذهب من هنا أرجوك، فهذا مكان عملي، ولا أستطيع أن أعمل ما دمت أنت هنا.

– لا ضرورة للغيظ. سوف أذهب... لكن بعد لحظات. ستكونين مجنونة إذا فكرت في طردي بالقوة.

– لو كنت رجلا لفعلت. تسارعت نبضات قلبها غضبا واضطرت إلى الابتعاد عنه؛ لأنها لم تعد قادرة على مواجهته. لكنه وضع يده على ذراعها وأعادها إلى مكانها.

– قولي لي... لم تدر ماذا كان في صوته، لكنها قاطعته وهي تلوي أصابعه بشدة حتى أطلق سراحها:

– إياك أن تلمسني. أنا أكرهك وأكره لمساتك.

– فهمت، تحبين لمسات «لوري» فقط؟

– كيف تجرؤ... قاطعها قائلا:

– دعك من هذا. لا تقولي لي إنه لم يعانقك قبل لحظات من دخولي عليكما...

– صحيح!! أدركت على الفور أن خديها تضرجا بالدم، مما جعل «كال» يضحك.

– لقد كان الأمر واضحا تماما. عناق صغير عابر. لنرى كيف تقارنين ذلك العناق بهذا! وقبل أن تستطيع الحراك وضع ذراعيه حولها. وفجأة أصبحت الغرفة مظلمة؛ لأنه صار قريبا جدًا منها، إلى الحد الذي عنده ضاعت بين ذراعيه. أحست بالدفء في صدره. كان لطيفا وهادئا بعكس ما توقعت. وطالت لحظة العناق دون أن تبدي مقاومة. وأدركت على الفور أنها مرتاحة للأمر، فاعتراها الخوف بحيث استجمعت شجاعتها وأبعدته عنها.

– أيها المتوحش. ورفعت يدها إلى وجهها تريد حماية نفسها من هجوم آخر وشيك. غابت عيناه الزرقاوان خلف سحابة سوداء، ولم تستطع «فانيسا» أن تفهم تعابير وجهه. ظلا للحظات ثقيلة صامتين في مواجهة بعضهما البعض قبل

أن يغادر «كال» الغرفة. وأخيرا أصبحت وحدها. وظلت واقفة في مكانها لعدة ثوان. فالصدمة منعتها من الحراك، وفي الوقت نفسه جعلت ساقيها ترتجفان بشدة. وأخيرا استعادت روعها ورمت نفسها على أقرب مقعد. وتشاغلت ببطاقة مرمية على الطاولة، لكن فكرها كان في ذلك العناق والشعور الذي ملأها خلاله. لم تكن مستاءة أو متضايقة حسب ما توقعت. فالعناق كان جميلا جدًا... هذا هو الوصف الوحيد المناسب له. تمتمت بصوت منخفض: «لاشك أنني مجنونة!» الموقف سيكون محرجا إذا عرف تفكيرها. إنها لا تستطيع أن تفعل شيئا الآن. كان عليها أن تصفعه حينئذٍ كرد فعل طبيعي من امرأة ترفض العناق بالقوة. لم تصفعه، ليس لخوفها من ردة فعله، بل لأنها لم ترد ذلك. قررت العودة إلى العمل فورا وتنسى ما قد حدث. النتيجة الإيجابية الوحيدة كانت أنه توقف عن طرح أسئلته المحرجة. لا شك في أنه سيعيد طرحها في وقت لاحق، لكن متى؟ أكدت لنفسها هامسة: «سأكون جاهزة له المرة المقبلة! سأكون مستعدة تماما!». وتساءلت عما إذا كانت تحاول إقناع نفسها بهذا القرار. انتهى يوم العمل وحان وقت العشاء. تمنت «فانيسا» لو أن «كال» وجدّها يقرران تناول الطعام خارج البيت.. ولكن المعجزة لم تحصل، وعندما وصلت إلى غرفة الطعام وجدت الرجلين يتحدثان وهما بانتظارها. استدار جدها مبتسما وهي تدخل الغرفة.

– هأنت هنا أخيرا. كنت سأقول لـ«كال»... قطع كلامه عندما وقعت عيناه على الفستان الرمادي الذي ترتديه.

– تبدين جميلة جدًا في هذا الفستان. هل تريدين تناول أي شيء؟

– شكرا لك. أريد كوبا من عصير التوت من فضلك.

– بالتأكيد، وأنت يا«كال»؟

كان «كال» قد توجه إلى الطاولة لتناول الكوب. وراقبته «فانيسا» وهو يعد كوبا لها وآخر له. ماذا حمل في نظراته إليها عندما دخلت الغرفة؟ ستعرف فورا، فقد أنهى إعداد الكوب واستدار نحوها ليقدمه لها. كان لامباليا تماما، ولم يظهر شيء على ملامحه يمكن أن يعطيها فكرة عما يفكر فيه. فقط إيماءة مؤدبة

www.rewity.com

وهو يقدم لها الكوب:

– تفضلي يا آنسة «كولينز».

– شكرا لك. رد بانحناءة خفيفة من رأسه، وقد كانت خفيفة بحيث لم تشعر «فانيسا» بها، وإنما لاحظت طرف ابتسامة ساخرة لم تستمرّ إلا للحظات، قبل أن يستدير لمتابعة الحديث مع الرجل العجوز. بعد ذلك دخلت السيدة «بانكس» تدفع أمامها عربة الأكل، فتوجه الجميع إلى المائدة. حبذا لو لم يكن موجودا لكانت مهمتها أسهل بكثير. لكنه سيبقى في البيت لفترة غير محددة، ومن الأفضل لها أن تعتاد هذا الواقع. جلسوا لتناول الطعام وهم يتبادلون الأحاديث العامة المسلية. وفكرت «فانيسا» كم ستكون الأمور مختلفة لو أنها موظفة حقيقية وليست حفيدة صاحب البيت. فهي قد بدأت تتمتع بعملها في الكتب إلى جانب إعجابها بالبيت. لكنها هنا في مهمة وستواصل لعب دورها تنفيذا لوعد قطعته على نفسها من أجل والدها المتوفى. نظرت مبتسمة لترد على سؤال وجهه «كال» دون أن تظهر أية مشاعر تجول في نفسها، وكان سؤاله عما قررته بالنسبة إلى عطلة نهاية الأسبوع. طيلة فترة العشاء كانت «فانيسا» تراقب جدها دون أن يلاحظ ذلك، تتأمل حركاته وتصرفاته والطريقة التي يتكلم بها. حاولت أن تبعد عن ذهنها الصورة المسبقة التي رسمتها له من خلال أحاديث أبيها. لم تكن المسألة سهلة، فقد تصورته رجلا قاسيًا متوحشا، لكن «آندرو ماكلين» هذا غير الصورة تماما، فهو لطيف معها –هي الموظفة– إلى الحد الذي جعله يصرّ على أن تتناول طعامها إلى مائدته. وقبيل انتهاء العشاء اختلست «فانيسا» نظرة إلى جدها. سمعوا رنين جرس الهاتف من بعيد، ثم دخلت السيدة «بانكس» وأبلغت السيد «ماكلين» أن هناك مخابرة هاتفية عاجلة له فسألها:

– من يطلبني؟

– قال إن اسمه «ماك وليامز» وتنحنحت عندما لفظت الاسم، وكأنها تريد أن تقول إنه غير حقيقي. تصلّب وجه «آندرو ماكلين» عندما سمع الاسم. وخيل إلى «فانيسا» أنها شاهدت لمحة من الغضب لم تدم إلا لحظات. اشتدت عضلات

فكيه وهو ينظر إلى «كال». سأله هذا الأخير بهدوء:

– هل تريدني أن أرد؟

– كلا. جاء الجواب مختصرا آمرا وعاليا، ثم خرج من الغرفة. ركزت «فانيسا» نظرها في صحنها، لكنها لم تستطع منع نفسها من النظر إلى الرجل الجالس قبالتها. كان يراقبها دون أن يظهر أية مشاعر. وفجأة خفق قلبها بفزع لا تفسير له... فهي لا تستطيع أن تفهم معنى نظراته عندما يكون هكذا. ففي عينيه عمق سحيق من الصعب كشفه بسهولة، وقد أدركت ذلك منذ اليوم الأول للقائه. أحست بخفقات قلبها تتسارع، فقالت بدون وعي أول كلمات خطرت لها:

– لماذا تنظر إليّ هكذا؟ أجابها بصوت ناعم وساخر:

– هل النظر ممنوع؟ أجابته:

– أنت تحدق إليّ، وأنا لا أحبذ ذلك.

– لسوء الحظ، هناك أشياء كثيرة لا تحبينها فيّ، لكنك ستتعلمين التأقلم إذا ما بقيت هنا. ولاحظت أنه شدد كثيرا على كلمة «إذا». رفعت «فانيسا» حاجبيها وقالت:

– لا تخف، أنا باقية هنا ما دام عملي منتجا وناجحا، وأنا متأكدة منه. على الأقل السيد «ماكلين» لا يشكو مني، وهو وحده صاحب العمل. وقالت في سرّها: «ولذلك يجب أن تسكت نهائيًا». ابتسم «كال» قائلا:

– أنا متأكدٌ أن عملك ممتاز من خلال ما رأيت حتى الآن. لقد تأثرت بنشاطك، لكنني أعتقد أنك تعرفين تماما ما أنت بصدده.

في هذه اللحظة عاد جدها إلى الغرفة، فتوقف الحديث بينهما عند هذا الحد. نظر السيد «ماكلين» باتجاه «كال» وبدا على وشك أن يقول شيئا، لكنه بذل جهدا للسيطرة على نفسه. شعرت «فانيسا» بأنه غاضب، وأدركت أنهما –لولا وجودها– لكانا قد تحدثا عن الاتصال الهاتفي. نظرت إلى الساعة ونهضت. لقد انتهوا لتوهم من العشاء، وتريد أن تترك الرجلين وحدهما للتباحث في أمورهما، وهي تعرف أنهما يرغبان في الانفراد أيضا. وعندما استأذنت في الانصراف بعد لحظات، لم يبد أحد منهما أي اعتراض. هرعت إلى غرفتها بهدوء وخفة، ولما

www.rewity.com

وصلتها تذكرت ما قاله «كال» بأنها تعرف تماما ما هي بصدده. الأكيد أنه لم يكن يقصد عملها في المكتبة. كم أصبحت تكرهه الآن.

مرت عطلة نهاية الأسبوع على أحسن ما يرام. ففي يوم السبت أخذت «فانيسا» خريطة أعدها لها جدها ووجدت قرية جميلة تقع على الطرف الآخر من الوادي، وهناك أمضت فترة ما بعد الظهر تراقب أطفالا صغارا يلعبون في حديقة يمتد طرفها حتى الشاطئ. رجعت إلى «دينستون هاوس» وقت العشاء وقد أنعشتها مناظر الريف الخلابة. وبعد تناول الطعام شاهدت التلفاز مع جدها. كانت تفضل ألا تكون معه، لكنه لم يترك لها الخيار. وعلى الرغم من شعورها بالانزعاج في بادئ الأمر إلا أنها فوجئت عندما أحضرت السيدة «بانكس» القهوة بأن الساعة قد شارفت منتصف الليل. كان «كال» قد غادر البيت بعد العشاء مباشرة. صعدت إلى غرفتها لتحضر حقيبتها فسمعت صوت محرك سيارة يزأر نزولا باتجاه مدخل البيت. تساءلت عما إذا كان ذاهبا للقاء «هيثر» الجميلة. الأرجح أنه سيفعل.

وفجأة وجدت نفسها تتساءل أيضا عما إذا كان يعانق «هيثر» بالطريقة التي عانقها بها اليوم. ابتعدت عن النافذة بنزق، وحملت حقيبتها ونزلت إلى الصالون. يا لها من أفكار سخيفة تضج في رأسها! كانت مستلقية في فراشها عندما سمعت صوت محرك سيارة «الجاجوار» أمام البيت. ومن خلال أشعة القمر الفضية المتسللة عبر الستائر المرفوعة تبينت «فانيسا» أن الساعة تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل. ولشدة استغرابها، اكتشفت أنها ظلت تنتظر حتى سماع هذا الصوت. والآن، بعد أن اطمأنت إلى عودته، يمكنها أن تذهب إلى النوم...

وهكذا صار. الأيام القليلة التالية كانت أيام عمل بالنسبة إلى «فانيسا» و«لوري». وبقدر ما وجدت نفسها غارقة في الكتب، وجدت أفكارها مشغولة أيضا بالرجل المستحيل الذي اسمه «كالوم غرين». أما مشاعرها تجاه جدها فكانت متضاربة. لقد شاهدت منه ملامح من الوصف الذي أعطاه والدها الراحل، لكنه في معظم الأحيان الرجل الطيب المرح. بدأت تشعر بالارتباك الداخلي، ليتها تستطيع

الثقة بأحد كي تطلب منه النصح. وفي بعض المرات كانت تجتاحها موجات من الندم، ولكنها لا تستطيع أن تبدل شيئا. الشخص الوحيد الذي يعرف سبب وجودها في «دينستون هاوس» موجود في «لندن»، ومن الصعب أن يتعاطف معها. فقد رفض السيد «مورتون» فكرتها من الأساس، والأرجح أنه سينصحها بترك المكان أو بالإبلاغ عن الحقيقة قبل فوات الأوان. لكنها قطعت شوطا بعيدا جدًا بحيث لم تعد قادرة على التراجع. ترددت وهي ترجع كتابين قديمين جدًا إلى المكتبة، وقد اعتراها شعور غريب بالوحدة والانعزال. كان الوقت بعد الظهر من يوم جمعة بارد ومظلم وليس كالأيام التي سبقته. الغيوم الداكنة تلبد وجه السماء واعدة بالمطر الغزير. وتمنت لو أن «لوري» يعود من الغداء بسرعة، خاصة أنه يرافقها يوميًا في عملها في المكتبة. لقد أقامت مع «لوري» علاقة صداقة محببة خلال أسبوع من العمل اليومي المتواصل. ومع ذلك لم تكن متأكدة أنه أهل للثقة؛ إذ شاهدته عدة مرات وهو ينظر إليها نظرات تعرف معناها تماما ولم تكن مهتمة بالأمر، فقد أصبحت قادرة على التأقلم لكونها غير مهتمة به كرجل. وبإصرار شديد أبعدت صورة «كال» عن ذهنها... «كال» الموجود دائما والذي يراقبها دون أن يبدو عليه ذلك. دخل «كال» إلى الغرفة في هذه اللحظات دون أن يصدر أي صوت، وفوجئت «فانيسا» بوجوده فسقطت الكتب من يدها. اقترب نحوها وانحنى يلتقط الكتب:

– يجب ألا يرى الجدّ هذه الحادثة. فالكتب قديمة جدًا ومهمة. سلم الكتب إلى «فانيسا» وهو يضحك.

– شكرا لك. واستدارت نصف دورة وهي تقول:

– لو لم تتسلل إلى المكتبة لما كنت أسقطت الكتب.

– هل كنت أتسلل؟ نظر إلى حذائه المطاطي الخفيف وأضاف قائلا:

– ربما يجب أن أنتعل حذاء التسلق عندما أدخل إلى هنا. صحيح أنه سيزعجني، لكنك ستعرفين أنني هنا. ألا تفضلين هذا الحل؟

– بدون سخافات أرجوك! حاولت الوصول إلى كتاب فوق الرف العلوي فلم تستطع على الرغم من طولها، وكان هو أسرع منها إليه فناولها إياه. سألها بعد

أن تناولت الكتاب مستعملة يدها المصابة:

– يبدو أن يدك أفضل اليوم؟

– أجل. هناك ندوب حمراء فقط ستزول مع الوقت.

– ستزول خلال أسبوع تقريبا. هل تستطيعين الآن أخذ أول درس من تمارين الدفاع عن النفس؟ لم تستطع مقاومة العرض، ولم تكن ترغب في القبول أيضا، لكن الكلمات خرجت تلقائيًا:

– هل الدروس للدفاع عن نفسي ضد أناس مثلك يريدون عناقي بالقوة؟ ضحك «كال غرين» عاليا، فبانت أسنانه البيضاء اللامعة وسط وجه كان كل ما فيه يضحك، واعترف قائلا:

– هذه فكرة ممتازة، ويجب أن أراقب نفسي جيدا، أليس كذلك؟ شعرت بالضيق من استمرار الحوار، لذلك ابتعدت عنه لمتابعة عملها وهي تقول:

– أعتقد أن هناك أشياء كثيرة تحتاج إلى ترتيب؛ لذلك يجب أن... وقاطعها قائلا:

– ... وخائفة أيضا؟ ومع أن صوته كان ناعما، إلا أنه أوقفها في مكانها. ابتسمت بأفضل ما تستطيع وقالت:

– منك أنت؟ أبدا. كانا يحدقان إلى بعضهما وقد خيّم جو من التوتر الذي ينذر بالانفجار في أية لحظة. واعتقدت أنه سيثير مجددا موضوع شخصيتها الحقيقية لذلك سارعت إلى القول:

– إذا كنت تريد تدريبي فأنا أقبل، لكنني لست أفهم سبب إلحاحك!

– لقد شاهدت تعابير وجهك عندما هرعت إلى سيارتي الأسبوع الماضي. كنت عاجزة تماما!

– حسنا، كنت خائفة بالتأكيد. لكن...

– لن تكوني في مثل هذه الحالة أبدا عندما أنتهي من تدريبك. فمتى نبدأ؟ غدا صباحا؟ وسألته بنعومة:

– ألست مشغولا؟ أقصد غدا السبت!

– لا شيء يستحق الذكر –وأضاف بلطف واضح– حسنا، سأراك في غرفة

الرياضة بعد ساعة من الإفطار. وتساءلت باهتمام ملحوظ:

– ماذا يجب أن أرتدي؟ لاح خيال ابتسامة على شفتيه وهو يقول:

– يمكنك ارتداء بذلة التدريب الخاصة بالجودو. هناك مجموعة منها سأحضر لك واحدة عند الصباح، فذلك أفضل من تعريض ملابسك للشد والتمزيق. ومع ذلك يجب أن ترتدي قميصا داخليًا تحت ملابس الجودو. قالت وهي تضع الكتب على الطاولة:

– حسنا، هل يمكن أن أتابع عملي الآن؟

– أجل. لقد جئت لأبلغك أنني والسيد «ماكلين» سنتناول العشاء في الخارج. وهو يسألك عمّا إذا كنت ترغبين في تناول العشاء في غرفتك.

– أفضّل ذلك. ولكنها كانت تفكر في تردده عندما نطق اسم السيد «ماكلين»؛ إذ بدا وكأنه على وشك أن يضيف شيئا ثم توقف. فماذا يريد أن يقول؟ ما هو الشيء الذي يخفيه حتى الآن؟ ولم تأخذها أفكارها إلى أبعد من ذلك. فمن غير المعقول أن يعرف شخصيتها الحقيقية. ترى هل يمكن ذلك؟ وعلى الرغم مما كان يدور في ذهنه، فإنه لن يلح الآن؛ إذ هز رأسه مودعا وغادر الغرفة. ظلت «فانيسا» شاردة الذهن تراقب الباب المشرع. تساءلت وهي تعض على شفتها السفلى عن المأزق الذي وضعت نفسها فيه وعما تخبئه لها الأيام المقبلة. أطل صباح يوم السبت مشرقا ودافئا، بعد أن رحلت غيوم الأمس بعيدا. استيقظت «فانيسا» وهي تحسّ بقلق خفيّ وغريب. ثم تذكّرت أن «كال غرين» سيعطيها أول درس في الدفاع عن النفس اليوم. لم تعد قادرة على الثقة به فباتت تشك في كل ما يقوله أو يفعله. ما هي خلفيات هذا العرض؟ وظل السؤال يلحّ طيلة الوقت الذي أمضته في الاستحمام وارتداء ملابسها. عليها أن تستعد لأية أسئلة محرجة قد يطرحها، خاصة أنهما سيكونان وحدهما في غرفة الرياضة. ارتدت سترة صوفية بيضاء على فستان أزرق سماوي، وانتعلت صندلا خفيفا، ثم تركت شعرها الأسود حرا منسدلا... وأخيرا لمسة من أحمر الشفاه، وها هي جاهزة الآن. كانت الساعة الثامنة والنصف عندما نزلت إلى غرفة الطعام. تعمّدت النزول مبكرة كي تتناول إفطارها وحيدة إذا أمكن، لكن «كال غرين»

كان قد سبقها، بل وعلى وشك إنهاء فطوره. حيّاها قائلا:

– صباح الخير.

– صباح النور. وتناولت قطعة من الخبز بعد أن جلست في مواجهته. رفع عينيه إليها وقال:

– تريدين بعض البيض باللحم؟

– لست جائعة كثيرا. سألها بنغمة هادئة:

– هل أنت متوترة الأعصاب؟ نظرت إليه ببرود وقالت:

– متوترة الأعصاب؟! كلا. ولم التوتر؟

– لا شيء. لكن يبدو لي أنك –اعذري كلامي– شبه ضائعة.

– لابد أن خيالك يزين لك الأمور. وتابعت حديثها بحذر بالغ؛ لأن عينيه بدأتا البحث في تعابير وجهها:

– لكن الحكمة تقضي بألاّ أثقل معدتي قبل بدء التمارين.

– صحيح. إنه موقف سليم جدًا؛ ولذلك قررت البدء بالتمارين بعد ساعة من الأكل.

– حسنا جدًا. وبالنسبة إلى البذلة الرياضية فأرجو ألا تزعج نفسك بإحضارها لي. سأرتديها تحت عندما أنزل، فهناك مكان لتغيير الملابس، أليس كذلك؟

– عظيم. سأجهز لك واحدة، والآن اسمحي لي أن أذهب لأستعد. وقف وأعاد الكرسي إلى مكانه، ثم أضاف:

– لن يفطر السيد «ماكلين» معنا؛ فقد اضطر إلى مغادرة البيت باكرا. إذن سأراك حوالي –واختلس نظرة إلى الساعة وتابع– حوالي العاشرة إلا ربعا في غرفة الرياضة.

– أجل. راقبته وهو يغادر الغرفة ثم سكبت لنفسها فنجانا آخر من القهوة. كم كانت غبية عندما قبلت عرضه في الأساس! في تمام الساعة العاشرة إلا عشرين دقيقة توجهت «فانيسا» إلى غرفة الرياضة. وبعيدا عن ملامح الهدوء المرتسمة على وجهها، كان داخلها مليئا بمشاعر التوتر والقلق والترقب. فمهما حدث، يجب أن تخفي أحاسيسها الداخلية كي لا يشمت «كال» بها. لا تراجع

الآن. ترددت قليلا أمام الباب، إذ فور دخولها إلى الغرفة عليها أن تستمرّ في اللعبة حتى النهاية. استجمعت أنفاسها وفتحت الباب بسرعة. المكان غارق في سكون عميق، فـ«كال غرين» لم يأت بعد. تمعّنت «فانيسا» في فرشة الجودو الموضوعة وسط الساحة وهي تتجه إلى غرفة تبديل الملابس. وقبل أن تدخل تمهّلت؛ إذ إنها سمعت ما بدا لها وكأنه صوت أمام الباب الخارجي. وعندما لم يتكرر الصوت استدارت لتدخل، فاصطدمت مباشرة بالرجل الذي خرج لتوه من غرفة تغيير الملابس. امتدت يدا الرجل لإسناد «فانيسا». كان يرتدي ملابس الجيدو البيضاء، التي طالما شاهدتها في الصور وعلى شاشة التلفاز ولكن ليس في الواقع. وبسرعة لاحظت التغيير الذي طرأ عليه. فقد أظهرت الملابس قامته الممتلئة وكتفيه العريضتين.. ومن خلال فتحة السترة بان القسم الأعلى من صدره الكثيف الشعر. حاولت «فانيسا» استعادة توازنها بعد هذه الصدمة. ولو كانت قادرة على الهرب فورا لما ترددت، لكنه أمسك بها بقوة ولم يتركها إلا عندما هدأت.

– هذا أنا! كان صوته نقيًا، وعيناه مركزتين فيها، ثم قال:

– ملابسك في الغرفة الثانية، والأفضل أن أعلمك كيف تربطين الحزام حول خصرك، فهيا بنا. ابتعد عن الباب ليفسح لها مجال الدخول. وكمن يساق إلى ساحة الإعدام، دخلت «فانيسا» الغرفة الثانية ببطء وهي مطأطأة الرأس.

- 6 -

«لقد غيّرت رأيي، فلننس الأمر برمته». اختلجت هذه الكلمات على شفتي «فانيسا» وهي تواجه «كال غرين» على فرشة الجودو، لكنها لم تستطع أن تنطقها قط. أخبرها بأن الفرشة مصنوعة من التاتامي وهي عيدان نبات الأرز بعد حصاده وتجفيفه. المعلومات غير مهمة بالنسبة إليها، المهم وجودها أساسا في هذا المكان. نظرت إلى نفسها في الرداء الأبيض فأدركت لماذا طلب منها «كال» أن ترتدي قميصا داخليًا، ذلك أن الرداء كان فضفاضا على الرغم من الحزام

الذي يشده حول خصرها. وعندما ربط لها الحزام، أبلغها أن السترة كثيرا ما تتمزق خلال التدريب، وطلب منها بابتسامة خفيفة ألا تهتم، على الأقل في المراحل الأولى. لاحظت «فانيسا» أن «كال» قد تغير بشكل يصعب تحديده. بدا وكأنه إنسان آخر تماما. فهو هادئ وواثق بنفسه بطريقة لم تعهدها فيه. نظر إليها وقال:

– أولاً، وقبل كل شيء، يجب أن نُحمي أنفسنا، أي أن نعد عضلاتنا للحركة. فأريدك أن تراقبيني وتنفذي ما أفعل بحذافيره. هل أنت جاهزة؟

– أنا جاهزة. مررت «فانيسا» لسانها لترطب شفتيها الجافتين. عليها أن تركز في التدريب. فمهما كانت الأسباب التي تدفعه إلى مساعدتها، فلا شك في أنها ستستفيد من دروس الدفاع عن النفس، ولهذا السبب فقط يجب أن تعترف له بالجميل. بدأت تكتشف أن حركات الإحماء سهلة المتابعة، وسرعان ما شعرت بأن عضلاتها لانت وارتخت خاصة عندما نفذت القفزات الأمامية التي كانت تعتقد أنها عاجزة عن القيام بها.

– يكفي هذا، لننتقل إلى المرحلة الثانية. توجه إليها وهو يقول:

– قفي منتصبة وأريحي جسدك. أجل هكذا.. كلا، رقبتك ما تزال متصلبة. أرخيها تماما. كانت لمسته قوية دون قسوة ولا تحمل أي معنى شخصي. حركت «فانيسا» رأسها استجابة لحركات أصابعه، وسمعته يقول:

– هذا أفضل. والآن، قبل أن أعلمك حركات جديدة، يجب أن تتعلمي السقوط الدفاعي بحيث لا تؤذين نفسك إذا ما سقطت.

– أنا مستعدة. استغربت كيف ظلت تحس دفء لمسته على الرغم من أنه سحب أصابعه منذ فترة. أخذت نفسا عميقا لتسكن روعها وتمنت فعلا لو أنها تستطيع أن ترتاح كما يطلب منها. كم ستكون الأمور أسهل إذا ما تناست شكوكها حول «كال»، وركزت في...

– هل تسمعينني يا«فانيسا»؟

– أنا متأسفة. تضرج خداها بالدم لملاحظته، نظرت إليه فلم تر أية تعابير خاصة على وجهه. جو العداء والتوتر ذهب إلى غير رجعة، وكلامه كان هادئا

ورصينا، لذلك شعرت بالراحة.

– استلقي الآن. سأقوم أمامك بالسقطة الدفاعية. وسرعان ما استلقى على ظهره بحركة واحدة قوية.

– والآن راقبيني، أولاً يجب أن تمارسي هذه الحركة، ثم تأتي حركة الانحناء البسيط المؤدية إلى السقطة المريحة.. وإذا ما نفذت الحركة بحذافيرها ستجدين أن بإمكانك السقوط دون أي أذى. تابعت «فانيسا» مراقبة هذا الرجل، كان هناك شيء جذاب حوله، وهي تريد أن تتعلم بسرعة كي تثبت له أنها تلميذة مجتهدة. وهكذا لاحظت حركاته، راقبته وهو يتدحرج على يمينه ويده ممتدة على طولها، لتقيه صدمة الارتطام بالأرض ثم تأتي قدماه لإكمال الحركة. على وجهه أمارات التركيز الشديد، لكن كلماته كانت هادئة طيلة الوقت وهو يخبرها بتفاصيل السقطة الجانبية «يوكويو كومي»، وبأن الأسماء اليابانية للعبة معروفة عالميًا بحيث إن الناس الذين لا يعرفون إلا لغتهم القومية قادرون على فهم التعابير كاملة. فجأة انتفض واقفا. جاء صوته عميقا وهو يقول:

– هيا، استلقي أرضا، لقد حان دورك. أطاعته «فانيسا» على الفور، واستلقى هو قريبا منها.

– هذه هي الطريقة، الذراع ممدودة على طولها، حسنا، والآن طبقي ما أقوم به. أحست «فانيسا» بالضياع لفترة قصيرة. فقد كان هناك شيء غريب حول «كال غرين» وهو يلعب دور المدرب الغريب القادر على أداء مهمته بنجاح. فمع كل حركة وكل كلمة وكل لمسة مساعدة منه كان جسمها يستجيب بسهولة. إنها تريد إتقان اللعبة. وعلى حين غرة طلب منها أن تتوقف:

– هذا يكفي. دعينا ننتقل إلى المرحلة التالية، فهل أنت مستعدة؟

– أعتقد ذلك. هل كنت على ما يرام؟ أجابها بهدوء:

– لا بأس بك. ولكنها شعرت بأنه مسرور من أدائها دون أن تدري سبب هذا الشعور. جعلها تعيد تنفيذ السقطة الأمامية، أولاً من موقع الوقوف، مساعدا إياها على إخفاء رأسها داخل جسمها وتقريب القدم اليسرى على اليمنى ثم من موقع الحركة... وكل ذلك دون أن تبدو عليه أية مشاعر أو تعابير.

– يكفي الآن، سنأخذ قسطا من الراحة. اجلسي على الفرشة وسأقوم أمامك ببعض الحركات بينما تريحين نفسك قليلا، فيجب ألا تجهدي نفسك، وأرجو أن تخبريني حين تشعرين بالتعب. ومع أنها راقبت الحركات التي أداها خلال الدقائق القليلة التالية إلا أن اهتمامها لم يكن مركزا فيها. لقد أخبرها قبل أن يبدأ بأنه لن يعلمها أية سقطات غير السقطة الأولى، على الأقل في هذه المرحلة، لكن لا شيء يمنع من أن يعرض أمامها بعض الألعاب التي سيأتي دورها لاحقا. وجدت نفسها معجبة بحركاته الرائعة. إنها تعرف تماما أنها لن تستطيع تنفيذ ما يقوم به، وهو بدوره لا يتوقع منها ذلك، ولكن الذي أثار إعجابها هو الرجل نفسه، فلقد كان إنسانا مميزا. لم تكن ملابسه وحدها مختلفة، بل تغيرت كل تصرفاته وتعابيره بطريقة جعلتها تشعر –واستغربت ذلك كثيرا– بالاحترام الشديد له. كان واثقًا بما يقوم به، بالإضافة إلى قدرته على إفهام «فانيسا» طبيعة الحركات الصعبة.. فاستعادت ثقتها بنفسها بعد ثوان قليلة من نزولها إلى الحلبة وبالتالي تمكنت من اتباع كافة التعليمات التي أعطاها إياها. عادت إلى الواقع عندما أنهى «كال» حركاته الاستعراضية. سألها:

– هل أنت مستعدة؟ كان شعره مبعثرا وقد تدلت خصلة منه على جبينه. وجاهدت «فانيسا» كي تمنع رغبة راودتها بأن تذهب إليه وترفع عن عينيه هذه الخصلة المتمردة. كانت الفكرة مضحكة. فماذا سيقول إذا ما نفذتها فعلاً؟

– أما زلت متعبة؟ نظرت إلى جبينه حيث ظهرت حبيبات من العرق. كان جو الغرفة دافئا. وأحست «فانيسا» أنها تحتاج إلى كأس من الماء البارد، لكنها لم تتجرأ على الطلب. وأجابته قائلة:

– أشعر بشيء من التعب، لكن لا شيء يهم. ابتسم «كال» بهدوء، وقال:

– يجب ألا تجهدي نفسك. لا فائدة ترجى من التدريب إذا كانت عضلاتك لا تستجيب. فالمسألة تحتاج إلى وقت.

– أنا متأكدة من ذلك، فأنت مدرب ممتاز. لم تكن تنوي إطلاق هذا التعبير، لكن الكلام أفلت قبل أن تفكر فيه.

– شكرا لك، فلقد بدأت التدريب مبكرًا.

– أنت تحمل الحزام الأسود. ولم تكن تنتظر جوابا؛ لأنه كان موجودا على خصره.

– أنا أحمل الحزام الأسود، أما السيد «ماكلين» فيحمل الحزام البني... إنه بارع في اللعبة بالنسبة إلى سنه.

– ألهذا السبب أنت هنا؟ أقصد كي تدربه؟ هز رأسه بالنفي وقال:

– لا أبدا. أنا ضيف هنا، فأبي كان صديقا حميما للسيد «ماكلين»، ولذلك اخترت المكان لأقوم ببعض الكتابة.. تردد قبل الكلمة الأخيرة ثم تابع:

– كتابة بعض الأشياء الخاصة، وأيضا جولات تدريبية في الجودو. أدارت «فانيسا» رأسها إلى ناحية أخرى من الغرفة كي تخفي عن «كال» تعابير وجهها التي قد تكشف أفكارها... لكنها نسيت أنه يقرأ الأفكار أيضا. أحست بأصابعه على ذقنها تعيد وجهها إلى مكانه، ونظر إلى عينيها مباشرة وهو يقول:

– هيا، قولي ما تفكرين فيه!

– أقول ماذا؟

– أفكارك التي أخفيتها.. من أنني لست سوى شخص كسول يمضي وقته متسكعا هنا.

– لا تكن سخيفا. حاولت أن تُخرج صوتها واثقا وقويًا، آخر شيء تريده الآن الدخول في جدال معه. ليس الآن، فهما في حالة جيدة ومن العيب إفساد كل شيء.

– لا ألومك إذا فكرت بتلك الطريقة –فاجأها بقوله هذا– أنا سأفكر بالطريقة نفسها لو كنت مكانك. لكنني فعلاً أشتغل في إعداد كتاب.

– رواية؟ ندمت لأنها سألت مرة أخرى. فبقدر ما تبتعد عن تفاصيل حياته الخاصة بقدر ما تمنعه من العودة إلى طرح الأسئلة المحرجة، وهو الشيء الذي لا تريده مطلقا، ولكن السؤال كان تأدبا.

– ليس رواية، إنه كتاب عن الرحلات. لقد عدت للتو من جولة أوربية واسعة، وأريد أن أكتب انطباعاتي عنها. واكتفت بوضع علامة تعجب على وجهها

وقررت أن تعود إلى التدريب بسرعة. فالشيء الوحيد الذي تفكر فيه حاليا هو إبعاده عن التساؤل حول سبب وجودها في «دينستون هاوس». قالت:

– هل يمكن أن نعود إلى التدريب؟

– بالتأكيد. الآن وقد تعلمت السقطة الدفاعية –وبشكل ممتاز بالنسبة إلى شخص مبتدئ– فسنقوم ببعض الحركات المشتركة. سوف أرميك.. لكنه توقف عندما لاحظ خوفها من هذه العبارة وأوضح قائلا:

– ليس بالمعنى الكامل، إذ سأوقف الحركة قبل الوصول إلى الأرض. إنها استمرار لما كنت أقوم به منفردا. أمسك كل واحد منهما كم الآخر وهما يواجهان بعضهما البعض.

– أحكمي قبضتك على كمي مهما حدث، وثقي بي. وفجأة، أحست بقبضته تشتد في حين بدأ جسمه يتحرك. رأته ينحني على أطراف أصابعه، ولم تشعر إلا وهي فاقدة التوازن. ثم دخل كتف «كال» تحت ذراعها وازداد جسمه انحناء. وبحركة واحدة منه وجدت نفسها مرمية من فوق كتفه. وفي لحظة رعب أدركت أنها فقدت اتصالها بالأرض، لكن دفعة لطيفة منه أكملت الحركة وألقتها إلى الفرشة. ودون أن تدري نفذت السقطة الأمامية، واصطدمت بالأرض دون أية صعوبات. وعندما نهضت، رأت «كال» يبتسم بعمق. كان شعورها مزيجا من الإعجاب والارتياح والضيق. فقد أحست، على الرغم من أنه تصرف معها بلامبالاة، بشيء خاص في لمساته... آه كم كان قويًا في حركته!

– مرة أخرى؟ لم تكن الحركة سيئة على الإطلاق! أخذت نفسا عميقا وقالت:

– لم تكن سيئة، فقد شعرت بأنني سأطير.

– قلت لك أن تثقي بي –وأضاف بلهجة هادئة– لا أظنك تعتقدين أنني سأتركك تقعين بالفعل!

– لست أدري ما يمكن أن أعتقد بشأنك. مرة أخرى ندمت لأن لسانها سبق عقلها. لقد فات الأوان؛ إذ تغيرت تعابير وجهه قليلاً، ثم ابتسم:

– أعرف ذلك فالشعور متبادل. أنا أيضا لا أدري ما أعتقد بشأنك. أرادت أن

تبتعد عنه على الفور. وضعت يدها على جبينها وقالت:

– كم مضى على وجودنا هنا؟

– حوالي الساعة. لماذا؟ هل اكتفيت؟ كان يراقبها بتمعّن، وقد بدأ جو التوتر يهيمن مجددا على الغرفة. خافت «فانيسا» من الوضع وأرادت أن تهرب منه بسرعة:

– إن قدمي متعبتان قليلا. اعترفت دون أن تحتاج إلى الكذب، فالتعب قد حل بها فعلا.

– إذن سنتوقف. لقد طلبت منك أن تبلغيني متى تعبت، على كلٍّ سنتابع الدروس غدا. عندئذٍ ستكون الأمور أفضل. وتستطيعين تعلم الحركات أسرع بعد تمارين اليوم. فكرت «فانيسا» بطريقة تخرجها من هذه الورطة، ثم أدركت أن هناك متسعا من الوقت لتفكر في أعذار إذا وجدت ذلك ضروريًا. وكان «كال» متعبا إلى حد ما فلم يلحظ ترددها في الاجابة.

– أجل، الموعد غدا سيكون ممتازا.

– بعد الظهر، حوالي الثالثة؟

– موافقة. يجب أن أذهب الآن. سأبدل ملابسي في غرفتي، وسأعيد لك البزة فيما بعد. أجابها:

– احتفظي بها للغد، فستحتاجين إليها كثيرا.

– شكرا على الدرس. نطقت هذه العبارة وهي تدخل إلى غرفة تغيير الملابس لتأخذ صندلها. وانتظرت حتى اختفى في الغرفة الثانية، ثم أطلقت ساقيها هربا إلى غرفتها.

لم يخبرها أحد أن «هيثر» ووالدتها ستكونان على العشاء في تلك الليلة، ولذلك أحست بأنها خدعت عندما دخلت غرفة الطعام ووجدتهما مع «كال»، وجدتهم وهم يتحدثون ويضحكون. كان «كال» مشغولا في حديث هامس مع «هيثر»، بينما جدها يضحك لعبارات أطلقتها السيدة «ماكري». ترددت «فانيسا» في الدخول كيلا تحطم ما اعتبرته جوا مكتملا، وفكرت في العودة من حيث أتت. لكنها تأخرت؛ لأن «كال» شعر بها، فاستدار قائلا:

– ها هي «فانيسا». استدار جدها أيضا وقال:

– تعاليْ يا«فانيسا»، تعاليْ. لقد تعرفت إليها يا «آن» على ما أعتقد؟ ابتسمت السيدة «ماكري» ملء فمها وقالت:

– كيف حالك يا عزيزتي؟

– على أحسن ما يرام. شكرًا لك يا سيدة «ماكري». ردت «فانيسا» التحية بأحسن منها. فهذه المرأة ألطف كثيرا من ابنتها. وتأسفت؛ لأن ذوق السيدة «ماكري» في الملابس ضعيف جدًا. كان ثوبها الطويل غير مناسب لها، لونه الأصفر الفاقع انعكس على وجهها فزاده ضعفا وشحوبا. أما جدها فقد كان شديد الاهتمام بهذه المرأة، وشاهدت «فانيسا» في عينيه نظرة دفء وهو يرنو إليها، وفكرت «فانيسا» في سرها: «لا شك أنه يحبها» وأحست بشعور غريب لهذه الفكرة. هل «كال» على علاقة حب مع الابنة أيضا؟ وهل هذا هو السبب الذي جعلها تبقى؟ وسرعان ما وجدت نظراتها تلاحق الاثنين اللذين وقفا بالقرب من النافذة. من الصعب أن تفهم علاقتهما، فرجل مثل «كال» يستطيع أن يخفي كل مشاعره إذا أراد، ولكنه الآن لا يظهر إلا الاهتمام الشديد بهذه الفتاة الجميلة. رأته يشعل لها سيجارتها، ولاحظت أن يدها لامست يده لثوان وهو يقرب الولاعة من السيجارة. استدارت «فانيسا» بسرعة وسمعت جدها يقول:

– والآن يا «فانيسا»، حدثينا عن درسك الأول اليوم. أحدث طلبه جوًا من الصمت في الغرفة. وبدا لـ«فانيسا» أن «هيثر» أصغت بكل جوارحها. والآن كيف تستطيع الإجابة عن السؤال دون أن تزيد في عداء الشقراء الجميلة لها؟ كم تتمنى لو أنها لم تأت قط!

– كل شيء كان على ما يرام. شعرت بعد انتهاء الدرس ببعض التصلب، لكنه زال بسرعة. وأضافت تقول لنفسها: «أرجوكم، دعونا نغير الموضوع برمته».

تساءلت «آن ماكري» بصوتها الواضح العالي:

– أي درس تقصد يا«آندرو»؟ ضحك «آندرو ماكلين» وهو يقول:

– يعتقد «كال» أن «فانيسا» تحتاج إلى بعض الدروس في الدفاع عن النفس؛ لذلك أخذها إلى غرفة الرياضة هذا الصباح وعلمها بعض الحركات. التفتت

السيدة «ماكري» ببطء إلى «فانيسا» التي أحست بقلبها يغرق بين أضلعها.

– حقًا؟ إنه شيء ممتع. وتابع الصوت البارد يقول:

– أخبريني، هل وجدت الأمر صعبا، أقصد أليست الدروس قاسية عليك؟

وبدت علامات الاشمئزاز على وجهها عندما طرحت السؤال الأخير.

– لقد تعلمت أولا السقطة الدفاعية، هذه كانت سهلة إلى حد ما. عندئذ لاحظت «فانيسا» تعابير وجه «هيثر»، حيث الغضب المكتوم يزأر في العينين الجميلتين. ليس لديها شيء تخسره، فهي لم تباشر الحديث ولذلك فليتحمل الآخرون مسؤولياتهم، فتابعت تقول:

– ثم علمني «كال» شيئا مختلفا تماما وهو عبارة عن رميي إلى الأرض دون الاصطدام بها.. كانت الحركة ممتازة. ولم تعرف لماذا التفتت إلى «كال» وابتسمت له، كما لم تعرف ما الذي يدفعها إلى هذا الموقف. غدا ستفكر في الأمر، أما الآن فهي لا تهتم أبدا. هز «كال» رأسه دون أن يظهر أي تعبير وقال:

– كانت حركة سهلة للغاية. وعما قريب ستستطيعين إتقان الأصعب.

– إنك مدرب رائع. كان الجميع يراقبونها: جدها باهتمام ملحوظ، والسيدة «ماكري» بامتعاض بالغ، و«هيثر» بعداء سافر... أما «كال»، فقد بدا وكأنه يتمتع بالموقف كله. فتابعت:

– وقوي جدًا أيضا. ابتسمت بعمق وهي تنظر إلى «هيثر». فكرت في نفسها: «فلتعتقد ما تشاء حول الدروس وإذا ما صدقت توقعاتي فإن «كال» سيواجه المتاعب فيما بعد. إنها غير مهتمة أبدا». تابعت وهي تنظر إلى جدها ولكن الحديث موجه إلى «هيثر» الجميلة:

– فما إن رفعني حتى رماني ثم أنزلني بلطف إلى الأرض، وكل ذلك دون أن يتركني. كان الإحساس عميقا ومخيفا إلى حد ما، ولكنني لم أرتعب. هز «آندرو ماكلين» رأسه انفعالا وقال:

– كم أتمنى لو أنني كنت هناك! ثم تكلمت «هيثر» بهدوء، لكن «فانيسا» شعرت بالغضب الكامن في داخلها:

– لم تخبرني يا«كال» بأنك خبير في لعبة الجودو.

– لم أعتقد أنك مهتمة بهذه الناحية يا عزيزتي.

كم هو مختلف الآن عن مدرب الجودو البارد الأعصاب الذي كان «كال» متقمصًا شخصيته قبل ساعات. دخلت السيدة «بانكس» بالطعام المكوّن من السمك المشوي والعجة والبطاطا، فتوجه الجميع إلى مقاعدهم.. وهدأت ردود الفعل. لماذا كان عليها أن تثير غضب «هيثر» إلى هذا الحد؟ خاصة أن الأمسية ما تزال في أولها. قررت أن تذهب إلى غرفتها فور انتهاء العشاء. وعندما أبلغت جدها عن رغبتها في الاستئذان والانصراف وافق على ذلك عن طيب خاطر. وأدركت أنه لا يريد أية مشاكل باعتبار أن «هيثر» ووالدتها صديقتان مقربتان، وخاصة الأم.

امتلأت نفس «فانيسا» ببعض مشاعر الحزن وهي تصعد السلالم، ولما وصلت إلى غرفتها أحست بالوحدة تجتاحها بعمق.. وظلت تسيطر عليها صورة المجموعة التي ما زالت تمضي الليل في البهو ضاحكة ومستأنسة. لقد كانت الغريبة غير المرغوبة بينهم. لم تستطع أن تقرأ أيًا من الكتب التي استعارتها. ولا أن تشاهد برامج التلفاز المنوعة. وبعد نصف ساعة من التنقل بين مسلسل تلفازي قديم، وكتاب بوليسي ممل، رمت الكتاب على السرير بنزق وأقفلت الشاشة الصغيرة ثم تذكرت فجأة الصحف القديمة في المكتبة. يمكن أن تقضي مع هذه الصحف ساعة أو أكثر، تذهب بعدئذٍ إلى النوم بسهولة.

فتحت «فانيسا» باب غرفتها وتمهلت قليلا للاستماع إلى الأصوات المنبعثة من الطابق الأسفل. الأضواء الخفيفة تنير السلالم والقاعة الكبرى، في حين تتردد في البهو أصداء أصوات وضحكات خافتة. لن يسمعها أحد الآن إذا ما نزلت إلى المكتبة.. وحتى لو سمعوها، فهذا غير مهم. أضاءت إحدى الثريات في المكتبة وتوجهت بهدوء إلى المكان الذي وضعت فيه الصحف. وتساءلت عمّا إذا كان من الأفضل لها أن تحمل الصندوق كله إلى غرفتها أو تكتفي ببعض الأعداد؛ ففي هذه المجموعة أشياء كثيرة للقراءة؛ ولذلك فإن بعضها يكفي، ولكن من ناحية أخرى يجب العمل على ترتيبها زمنيًا وهذا يعني أخذها كلها؛ لذلك

قررت حمل المجموعة الكاملة للعمل على ترتيبها أولا ومن ثم تقرؤها، فهذا يوفر عليها الوقت فيما بعد. لم يكن الصندوق ثقيلا جدًا، ولكنها عندما انحنت لحمله وقع أحد الكتب على الأرض محدثًا صوتا عاليا. اضطربت قليلا، ثم وضعت الصندوق أرضا كي تلتقط الكتاب وتعيده إلى مكانه. وفجأة طغى ضوء ساطع على الغرفة فالتفتت لتجد «كال» واقفا عند الباب. وشعرت كأنها اعتقلت بالجرم المشهود. سار باتجاهها وهو يبتسم.

– حسنا، حسنا.. ماذا تفعلين؟ استعادت «فانيسا» رباطة جأشها بعد لحظات الاضطراب الأولى وقالت:

– قررت أن أحمل الصحف القديمة إلى غرفتي؛ للاطلاع عليها.. هذا كل شيء! كانت قد تجنبت النظر إليه مباشرة وهما في غرفة الطعام، لكنها فعلت الآن. والواقع أن لا خيار لها سوى النظر إلى هذا الرجل الجذاب في بدلته السوداء الفاحمة وقميصه الأبيض ورباط عنقه الأسود أيضا والذي يتناقض تماما مع ما كان عليه في الصباح. بدا وجهه غامضا ومظلما؛ لأن الضوء الأساسي كان ينبعث من خلفه. استدارت «فانيسا» بقلق وانحنت تلتقط الكتاب لتعيده إلى الرف. قال:

– سأحمل لك الصندوق إلى غرفتك.

– لا داعي لذلك، فأصدقاؤك سيتساءلون عنك بعد قليل. لم تقصد أن تثيره بهذا الكلام، لكنها فعلت؛ إذ لاحظت على وجهه ابتسامة غاضبة وهو يتجاوزها نحو الصندوق. أجابها بجفاء واضح:

– الجو بارد جدًا هناك، والفضل في ذلك يعود –بلا شك– إلى التفاصيل التي رويتها عن دروس الجودو. امتزجت في نفس «فانيسا» أحاسيس هي خليط من الشعور بالذنب؛ لأنها ورطت «كال»، وأيضا الشعور بالظلم؛ لأنها لم تكن البادئة في الحديث حول الموضوع. استعادت هدوءها وقالت:

– مهما كان الأمر، فلم أكن أنا التي أثرت الموضوع في الأساس، وعليك أن تتذكر هذا الواقع. تضرج خداها بالدم وراح صدرها يلتفض بفعل الغضب، وما لم تنتبه له حينئذٍ أنها كانت تبدو جميلة ومثيرة للغاية. والشيء الوحيد الذي

خطر على بالها وجه «هيثر» المنفعل عند سماعها القصة..

– اهدئي الآن أيتها القطة المتوحشة. بدا «كال» مستمتعا بغضب «فانيسا» وهو يحمل صندوق الصحف القديمة. أما «فانيسا» فلم تكن راغبة في مواصلة الحديث، لذلك استدارت خارجة من المكتبة، وتركته مع الصندوق.. فإذا أراد حمله فليكن، وإلا فإلى الجحيم هو والصحف. هرعت راكضة طول الطريق إلى غرفتها، وعندما وصلتها تمهلت تستمع لوقع خطواته. قالت في نفسها: «الأكيد أنه لن يأتي! سيضع الصندوق أرضا ويهز كتفيه العريضتين ويقول: إلى الجحيم أنتِ أيضًا... ثم يعود إلى صديقته التي تنتظره».

– إياك أن تهربي مني مرة ثانية. دخل الغرفة وراءها وأغلق الباب بقدمه. وجه إليها النظرة الباردة نفسها، ثم وضع الصندوق على الكرسي وقال:

– هل تهربين من الناس دائما عندما يحمى وطيس النقاش. اتسعت عينا «فانيسا» دهشة وهي تقول:

– أنا أهرب؟! لا شك في أنك تمزح. أي نقاش تتحدث عنه؟ لقد قلت لك ببساطة...

– رواية متوازنة بسيطة حول التمارين الصباحية، أجل، سمعت ذلك وشاهدت وجهك، كنت تستمتعين بردة الفعل، أليس كذلك؟ سارت «فانيسا» نحو الباب لتفتحه وبدأت تقول:

– هل تسمح؟ لكنه أوقفها وأعادها إلى مكانها بسرعة.

– كلا. لن أغادر الغرفة، ليس قبل أن أكون مستعدًا. أمسك ذراعها، ومع أن قبضته لم تكن قوية إلا أنها كانت حازمة بما فيه الكفاية.

– هل تستعمل أسلوب القوة الجسدية دائما مع النساء اللواتي لا يوافقن على آرائك؟ لا بد أنك ربحت العديد من المناقشات بهذا الأسلوب. ثم سحبت يدها بقوة وقالت:

– دعني وحدي فورا.

– لن أتركك. على كل، النساء لسن كلهن مثلك، فأنت تملكين طباعا حادة جدًا، تذكرني بشخص... تجمدت في مكانها. اتضح الآن السبب الذي جاء

من أجله، وسينطق بالكلمة في أية لحظة... عليها أن تفعل أي شيء لتغيير الموضوع. أي شيء لإبعاده عن الموضوع السري الذي تكتمه، فجأة صرخت ألما، ولاحت الدموع في عينيها، هذه الدموع التي تستطيع سكبها وقتما تشاء:

– إنك تؤلمني.. اترك معصمي... أطلق سراحها فورا، ثم رفع ذقنها إلى الأعلى ونظر إلى عينيها بحدة:

– يا إلهي... وتعرفين فن التمثيل أيضا!

– لست أدري.. لست أدري ما تقصد. بدأت تعتاد دورها بسهولة، ما دام قد ابتعد عن الموضوع الأساسي.-أجاب ضاحكا:

– أنت تعرفين تماما. يا لك من امرأة! ثم ضربها بلطف على ذقنها وأضاف:

– وداعا يا «سارة برنار»، كما تعرفين أنا لا أحتمل منظر الدموع؛ لذلك سأعود إلى الطابق السفلي حيث الجو أكثر برودة من هنا. ولا شك في أنني أستطيع التعبير عن نفسي بسهولة هناك بدلاً من المشاكل هنا. وابتسم لها بعمق قبل أن يستدير خارجا.

وقفت «فانيسا» في مكانها تراقب الباب المغلق قبل أن تتحرك باتجاه صندوق الصحف. ترددت قليلا، ثم حملته إلى طاولة صغيرة تحت النافذة وبدأت بفرز الصحف. أخرجت حوالي مائتي صحيفة من الصندوق، بعضها كان في حالة رثة وقد اصفرّت أوراقه تماما، والبعض الآخر ما زال في حالة جيدة. المجموعة تحتاج إلى عمل متواصل وطويل، ولكن «فانيسا» تدرك أنها ستجد فيها أشياء أكثر أهمية مما في الكتب. رفعت حزمة من أعداد جريدة «التايمز» تعود إلى عام ألف وثماني مائة وأربعة وخمسين ووضعتها على الطاولة. كانت الأوراق صفراء مهلهلة وقد علاها الغبار، وتساءلت «فانيسا» عن المدة التي ظلت فيها هذه الصحف مهملة ومنسية في الصندوق. وفجأة اكتشفت شيئا مهمًا، وهو الورقتان اللتان وجدتهما في قعر الصندوق تقريبا. رفعتهما «فانيسا» –في بادئ الأمر– دون أن تعرف مضمونهما، وكانت على وشك أن تضعهما جانبا عندما لاحظت الاسم المكتوب أعلى كل ورقة.. فتوقفت.. تردد اسم «آندرو ماكلين» ما لا يقل عن ثلاثين مرة بالنمط نفسه، وكأن شخصا ما كان يحاول التمرن

www.rewity.com

على تقليد توقيع جدها. قرّبت «فانيسا» الورقة من الضوء للتمعن في التواقيع، فانكشفت الورقة الثانية بما تضمه من كتابة. كانت عبارة عما يشبه رسالة باستثناء كون الكتابة تبدأ من منتصف الورقة. لم تكن «فانيسا» راغبة في قراءة رسائل الآخرين لكن شيئا ما دفعها إلى ذلك، فوجدت نفسها تمضي قدما في القراءة. الرسالة المكتوبة على الورق كانت على الشكل التالي:

«أنا الموقع أدناه، أخوّل حامل الرسالة «جون ماكلين» قبض الشيك المرفق، وأيضا سحب محتويات صندوق الودائع الخاص بي والذي يحمل الرقم...»

لم تعد قادرة على القراءة أكثر. فقد أدركت فورا السبب الذي من أجله تكرر توقيع جدها على الورقة الثانية. قربت الورقتين إلى بعضهما. لاحظت أن الرسالة ممهورة بتوقيع هو نسخة مطابقة للتواقيع الموجودة على الورقة الأولى. لا مجال للشك الآن في أن هناك شخصًا ما تمرّن على تقليد توقيع «آندرو ماكلين» حتى أتقنه، ثم كتب رسالة التوكيل والشيك بالتأكيد... ولسبب غير معروف وجدت الورقتان طريقهما إلى الصندوق.. ولكن من هو الفاعل؟ ليس هناك سوى جواب واحد، فـ«فانيسا» لا تعرف إلا شخصا واحدا يدعى «جون ماكلين».. إنه أبوها...

خرجت «فانيسا» إلى نزهة صباحية فور الانتهاء من الاستحمام وارتداء ملابسها. موعد الفطور بعد الساعة التاسعة كما كان يوم الأحد الماضي. لكنها لم تكن تشعر بشهية للأكل. فالاكتشاف الذي وقعت عليه مساء أمس أثقل عليها نفسها وجسدها ولم يترك مجالا للطعام أو الشراب. لا تريد أن تأكل شيئا، وتشعر الآن وكأنها لن تأكل مرة أخرى في حياتها. تسللت من الباب الأمامي بعد أن ارتدت معطفا ثقيلا، ذلك أن الهواء كان باردا ومشبعا بالرطوبة، والضباب يخيّم على البساتين والغابات. استدارت يسارا وسارت في الممر الطويل مطأطأة الرأس واضعة يديها بعمق في جيبي معطفها، بغير أن تنتبه للرجل الذي كان يراقبها من إحدى نوافذ البيت. ولأنها لم تنم أمس إلا نوما متقطعا قلقا، فقد أظهرت الظلال الداكنة التي تركها السهر تحت عينيها بياض وجهها أكثر من المعتاد. تفرّع الممر الذي تسير فيه إلى اتجاهين. أخذت الاتجاه الذي يمر خلف المنزل ثم

يمتد مسافة كيلومترين تقريبا. وسارت دون أن تعي ما يدور حولها، ودون أن تعرف إلى أين. لم تعد «فانيسا» ترى سوى ورقة تحمل تواقيع مزورة -الأرجح أنها من قبل أبيها- وهذا ما يجعله مجرما، إن لم يكن في الواقع فعلى الأقل بالنية. هل مضى والدها قدما في عمليته؟ وهل نجح في التزوير أم اكتشفوه؟ لن تجرؤ على سؤال أحد، أبدا. وأدركت الآن أن مجيئها إلى «دينستون هاوس»، مع كل الأسباب الموجبة لذلك، قد انهار وتفتت. من يستطيع القول الآن إن والدها كان على حق في كل ما أخبرها به من أن جدها كان قاسيًا ومجحفا بحق ابنه الوحيد؟! ربما كانت له أسبابه المعقولة. لقد صدقت «فانيسا» كل القصص التي حدثها بها والدها عن معاملة «آندرو ماكلين» السيئة، عن بخله في المال، وعن رفضه السماح له باختيار شريكة حياته، وعن أشياء أخرى كثيرة.. بحيث اضطر أخيرا إلى ترك المنزل وتأسيس حياة خاصة به. لكنه لم يشر قط إلى التواقيع المزورة، وربما ترك أشياء كثيرة أخرى دون أن يبوح بها.. وتذكرت «فانيسا» إدمان والدها للمقامرة وكيف كان يطلب منها اختيار أسماء أحصنة السباق. كان الأمر طريفا وهي طفلة، طفلة تحب والدها حتى الجنون... لكن هذه الطفلة لم تكن قادرة على فهم دموع أمها، أو نقاش والديها حول المال. وفجأة طغت على ذهنها صورة واضحة تماما، مثل صورة نصف مكتملة جاءت الأجزاء الناقصة لترسم معالمها الجلية. تابعت السير وكأنها تحاول الهرب من سيل الذكريات المزعجة.. ثم جاء صوت مفاجئ:

- صباح الخير. أليس الوقت مبكرا على النزهات الصباحية؟ رفعت رأسها لتجد «لوري» واقفا أمامها، وإلى يمينها بعض الأبنية الريفية الرمادية.

- صباح النور. كنت محتاجة إلى نزهة صباحية. سألها «لوري» باهتمام:

- هل أنت على ما يرام؟ عاد القلق إلى نفسها خوفا من أن يكتشف فيها شيئا غريبا.

- كل شيء طبيعي، فماذا تقصد بسؤالك؟

- وجهك شاحب اللون، ويؤسفني أن أقول إنك كمن خرج لتوه من صدمة عنيفة. فإذا كنت تشعرين بالانزعاج، فأنا على استعداد للبقاء معك قليلا.

جاهدت «فانيسا» كي تبتسم له:

– شكرًا يا«لوري»، لا ضرورة لذلك فسوف أعود إلى البيت بعد قليل.. على فكرة، ماذا يوجد في نهاية هذا الممر؟

– لا شيء سوى بحيرة صغيرة وبعض الأشجار وبيت ريفي مهجور، فالممر يمتد بطول كيلومترين تقريبا ثم يعود إلى البيت الرئيسي من الجهة الأخرى. هل تريدين أن آخذك إليه؟

– لا، شكرا لك. أحست بدوخة خفيفة عندما هزت رأسها بالنفي. مد «لوري» ذراعه لها وقال:

– تعالي معي، فليس في البيت غير أمي وهي ستعد لك فنجانا من الشاي. إغراء الشاي كان كبيرا، لكنها لم تكن راغبة في الوقت الحالي في مقابلة أي إنسان. تريد فقط أن تكون وحدها وتفكر في كل شيء.. وهي غير مستعدة لمحادثة أحد.

– شكرا يا«لوري»، سأعود الآن إلى البيت، فأرجوك ألا ترافقني.. صدقني أنا بحالة جيدة.

– حسنا، أنا ذاهب بالاتجاه نفسه على أي حال، فهيا بنا. لا مجال الآن للهرب منه، والأفضل أن تلجأ إلى غرفتها بأسرع ما يمكن. ابتسمت بعمق هذه المرة وقالت:

– حسنا يا«لوري». لكنني أؤكد لك أنني لن أسقط خلال الطريق! رد بابتسامة أكبر:

– هذا يدعو إلى الأسف، فسأكون مسرورا إذا حملتك طول الطريق إلى البيت. سارا لعدة لحظات وسط صمت مطبق، في حين كان الضباب يذوب تدريجيًا بفعل أشعة الشمس التي بدأت تطل من الشرق واعدة بيوم دافئ وجميل. قال لها وهما يقتربان من البيت:

– سآتي إلى المكتبة غدا صباحا.

– حسنا جدًا. لن تأتي على ذكر الصحف القديمة إلا إذا سألها في حالة ملاحظته اختفاء الصندوق. لقد أخفت الورقتين في قعر أحد أدراج طاولة الزينة،

علها تجد تفسيرا بريئا.. وسيكون الأمر مستحيلا إذا ما أتلفتهما. ومع أنها تعرف تماما أن لا أمل يرتجى إلا أنها أصرت على التمسك بالسراب.

– «فانيسا»..

– نعم!

– قلت، هل أنت على ما يرام؟

– بالتأكيد.. بالتأكيد.. أنا آسفة. شكرا لك يا«لوري»، أراك غدا. كانا قد وصلا إلى مدخل البيت، فاستدار «لوري» مبتعدا. قالت «فانيسا» باستغراب:

– ألن تدخل إلى البيت؟

– لا. كنت أريد الاطمئنان عليك فقط. فهيا اذهبي وتناولي إفطارا شهيًا، وستشعرين على الفور بالتحسن. لمست ذراعه إعرابا عن الشكر وقالت:

– أنا ممتنة لك يا«لوري». فشكرا جزيلا على كل شيء. استدارت ودخلت البيت مسرعة. وما إن وطأت قدمها عتبة البيت حتى اجتاحها شعور بالحزن العميق. تمهلت للحظة كي تسيطر على أحاسيسها وتحاول تناسي كل ما حدث، ولكنها لم تستطع. فهذا بيت أبيها وبيت جدها، ولا فائدة من تناسي الماضي وأحداثه. ابتلعت بعض الدموع التي انحدرت على خديها وأسرعت باتجاه غرفتها. استلقت على سريرها وتركت لدموعها العنان، فأحست بها ساخنة حارة ومؤلمة... ثم دفنت وجهها في المخدة وانفجرت منتحبة. لم تسمع قرع الباب، كما لم تسمع الصوت الذي ناداها، وظلت على حالها حتى فتح الباب ودخل «آندرو ماكلين» الغرفة. نهضت وقد انعقد لسانها وملكتها الدهشة، ولم تدرك للوهلة الأولى، بسبب الدموع التي منعتها من الرؤية الواضحة، ما إذا كان هذا جدها أم «كال». ثم جاء صوت جدها:

– ماذا بك يا بنتي العزيزة؟ لم تحر «فانيسا» جوابا عندما اقترب منها. ضاعت كل الكلمات من ذهنها، فاكتفت بهز رأسها بلا وعي. وضع ذراعه على كتفها وقال:

– ما الأمر؟ هل فعلنا شيئا أساء إليك؟ بحق السماء يا«فانيسا» أوقفي هذا النحيب، فأنا لا أستطيع أن أراك باكية! أرجوك اهدئي. وبالتدريج أثّر رجاؤه

فيها، فاستطاعت من بين شهقات البكاء أن تجيب:

– أنا آسفة! لا، لم يصدر عنكم ما أساء إليّ. لا أستطيع أن أخبرك بالسبب. المسألة خاصة جدًا. جلس على المقعد قبالتها وقال:

– في هذه الحالة لن أكرر السؤال. لكن أرجوك، دعيني أساعدك إذا أمكن. لم تتناولي إفطارك بعد، أليس كذلك؟

– بلى.

– إذن ستحضر لك السيدة «بانكس» بعض الطعام، وأُصرّ بعد ذلك على أن تنزلي إلى البهو فنتحدث قليلا حول فنجان القهوة. نظرت إليه «فانيسا» وقالت:

– ولكنك يجب أن تذهب إلى أشغالك هذا الصباح! ابتسم وقال:

– يمكنني تأجيل أعمالي هذا الأسبوع. فلن أغادر البيت وأتركك على هذه الحالة دون أن أعرف السبب، كما أنني أتردد في سؤال «كال»؛ لأنه مشغول في الكتابة... وإلى جانب ذلك.. وتوقف عن الكلام فجأة، فحثته قائلة:

– ماذا؟ ابتسم متابعا:

– لدي انطباع بأنكما أشعلتما النيران في نفسيكما. قاطعته بتنهيدة احتجاج وإنكار، فضحك قائلا:

– لا تغضبي يا عزيزتي، أنا أفهم الوضع تماما. كان من الطبيعي أن تصطدما ببعضكما البعض. فـ«كال» رجل عدائي جدًا، أما أنت فانطباعي عنك أنك امرأة ذات إرادة قوية، أنا أحب مثل هذه المرأة، وأعتقد أن دروس الجودو ستعطي مفعولا قويًا عندما تقطعين مرحلة منها. وعلى الرغم من كل شيء ابتسمت «فانيسا» لكلام جدها:

– أنا آسفة، لم أدرك... قاطعها واقفا:

– لا تهتمي أبدا. أنا أتمتع بوجود الشباب حولي. والآن، أقترح عليك أن تغسلي وجهك، بينما أطلب من السيدة «بانكس» إعداد فطورك... وبعد الطعام أراك في البهو. غادر الغرفة وأغلق الباب خلفه بهدوء. ملأت «فانيسا» الحوض بالماء البارد وغمست وجهها فيه مع إبقاء عينيها مفتوحتين. إنها خدعة

تعلمتها منذ سنوات لترطيب العينين وإزالة الاحمرار منهما. وبينما هي تنشف وجهها سمعت السيدة «بانكس» بالباب، فدعتها إلى الدخول. الإفطار الذي جاءت به السيدة «بانكس» كان يتكوّن من بعض الخبز المحمص إلى جانب البيض المقلي مع الزبد والعسل... وبالتأكيد فنجان قهوة. قالت «فانيسا»:

– شكرا جزيلا لك يا سيدة «بانكس». ردت مدبرة المنزل وهي تسعل:

– لقد طلب مني ذلك، قال إنك لست على ما يرام.

– لم أكن مرتاحة، لكني سأشعر بالتحسن عندما أتناول هذا الإفطار الشهي. هزت السيدة «بانكس» رأسها وكأنها غير مقتنعة بما قالته «فانيسا».

– حسنا سأتركك وطعامك الآن. وذهبت. تنهدت «فانيسا» وتساءلت عما إذا كانت ستخترق تحفظ هذه المرأة في يوم من الأيام، لكنها لن تستطيع؛ لأنها غير باقية هنا طويلا خاصة بعد اكتشافها الليلة الماضية. فكل خطط الانتقام التي رسمتها ضد جدها تلاشت، حطمتها حقيقة الورقتين القديمتين، وأخذت تفكر في الوقت المناسب لمغادرة البيت. صحيح أن هناك عملا كثيرا في المكتبة، لكنها لا تستطيع تحمل البقاء هنا طيلة هذا الوقت محتفظة لنفسها بالسر الذي اتضح لها. كما أنها لا تستطيع مصارحة جدها بالحقيقة، كيف تجرؤ على إيذائه؟ لقد استطاع تجاوز آلام السنوات الماضية، فهل يجب عليها أن تفتح له الجراح الملتئمة؟ من الأفضل أن تنسحب بهدوء... ولا تعود أبدا. بعد فترة من الزمن سيخف شوقه إلى حفيدته المجهولة. فكّرت في أن تخبره بحقيقتها، لكنها أسقطت الفكرة فورا؛ إذ كيف يمكن أن تعترف بالخدعة التي خططت لها؟ وبأنها قررت أن تخبره بحقيقة شخصيتها قبل أن تخرج من حياته مرة أخرى وإلى الأبد؟ أما بعد أن تعرفت إليه فلن تتمكن من إخباره. ليس الآن، فقد فات الأوان.. فات الأوان نهائيًا. «لوري» يستطيع أن ينجز العمل في المكتبة. ولم لا؟ فهو يعمل بنشاط وقادر على متابعة المهمة. بالإضافة إلى ذلك يحب الكتب، خاصة الكتب القديمة، مثله مثل صاحب البيت.

جلست إلى الطاولة بعد أن رفعت عنها الكتب والجرائد، وبدأت تقلب في ذهنها طرق إقناع «لوري» بمواصلة العمل بعد أن ترحل. إنه آت إلى المكتبة

www.rewity.com

يوم الاثنين، ورغبته في العمل معها يوميًا واضحة كما أنها مقبولة من جميع المعنيين، وهذا سيكون ترتيبا معقولا ولا يسبب أية أزمات، والمهم في النهاية أن يتم ترتيب الكتب وفهرستها. وبدأت «فانيسا» تشعر ببعض التحسّن وهي تتناول طعامها. هذا التحسن الخفيف يكفي الآن على الأقل، لكن مشاعرها عادت إليها في وقت لاحق من النهار عندما نزلت إلى غرفة الرياضة. شاركها «آندرو ماكلين» الغداء في حين كان «كال» خارج البيت. وقد حاول جدها -كما فعل طول النهار- أن يسليها ويرفه عنها. أبلغها عن بعض ارتباطاته وأشغاله... وعلى الرغم من كل شيء بدأت تحس بإعجاب متزايد تجاهه. وجدت أنه شغوف بعمله، وله مصالح متعددة منتشرة من «أبردين» إلى «لندن» تدفعه إلى التنقل كثيرا بين «بريطانيا» و«أوربا». وبعيدا عن شؤون العمل اكتشفت حساسية مرهفة في طباعه. ومع أن والدها وصف لها جدها بأنه قاسي القلب، إلا أن الحقيقة كانت مختلفة.

ذهبت «فانيسا» إلى غرفة الرياضة وأحاسيس متضاربة تختلج في نفسها، وتمنت لو تجد «كال غرين» قبل أن يرتدي بزة الجودو لتطلب منه ألا يزعج نفسه بذلك. والواقع أنها لا تريد أن تمضي وقتا طويلا معه، فعيناه الحادتان قادرتان على اختراق أفكارها والوقوف على مشاعرها... وهذا ما لا ترغب فيه الآن.

الصمت يخيّم على غرفة الرياضة، عبرت «فانيسا» باتجاه غرف تغيير الملابس وهي تنادي «كال»، وأدركت بعد فوات الأوان أنها نادته باسمه الأول، فعضت شفتها السفلى ندما. ومع ذلك ليس هناك مجال آخر، فمناداته باسم سيد «غرين» ستثير سخريته دون شك.

- سأكون معك خلال دقيقة. إذن هو في الداخل. بعد لحظة خرج إليها وعلى وجهه علامة استفهام. «فانيسا» تعرف أن أحداث الصباح تركت آثارها على وجهها بحيث لا يمكن للماكياج أن يخفيها. قالت وهي تجاهد بلا جدوى لإخفاء مشاعرها:

- كنت أتساءل عمّا إذا كنت هنا، فالمكان كان صامتا تماما. نظر إليها باندهاش، فخشيت أن يكون جدها قد أخبره عن دموعها ونحيبها هذا الصباح، لم تكن

واثقة بذلك، لكنها تمنت ألا يكون جدها قد فعل. أجابها بهدوء:

- أنا هنا، فهل أنت مستعدة؟ ترددت لحظة قبل أن تقول:

- أجل، لن أتأخر في تغيير الملابس كثيرا. تجاوزته ودخلت إلى الغرفة. ماذا بعد؟ لم يكن لديها خيار. عليها أن تستمر على الرغم من شعورها بالضعف والإعياء. بعد دقائق كانا في مواجهة بعضهما البعض فوق فرشة الجودو، وسرعان ما ارتاحت «فانيسا» بفعل حركات الإحماء التي أدياها معا، بالإضافة إلى أنه لم يثر أية تساؤلات. طلب منها أن تكرر السقطة الدفاعية التي تعلمتها أمس عدة مرات. واستغربت كيف أنها استطاعت تنفيذها دون صعوبة تذكر، بحيث إن «كال» نفسه علق على ذلك فيما بعد قائلا:

- هل تعرفين أن حركتك طبيعية؟ التفتت إليه بسرعة متوقعة أن تجد ظل السخرية على شفتيه لكنها وجدت ابتسامة عذبة، وتابع يقول:

- إنني أعني ما أقول، فأنت طرية العود وممشوقة القوام. ردت بابتسامة عادية:

- شكرا لك. على كل حال، إنها أيام قليلة وتتخلص نهائيًا من تساؤلاته المحرجة المستمرة، وكذلك من خوفها عندما يكون موجودا. وفجأة سألها:

- هل أنت على ما يرام؟ صدمها السؤال، فقالت متلعثمة:

- لماذا، أنا.. إنني بخير، لكن لماذا تسأل؟

- تبدين شاحبة، ويجب ألا تواصلي التدريب إذا كنت متعبة أو منزعجة من شيء ما. ثم سألها دون مقدمات:

- هل أزعجك «لوري»؟ رفعت «فانيسا» رأسها باتجاهه دون أن تفهم ما الذي قصده بالسؤال:

- «لوري»؟ أنا لا أفهم ما تقول؟

- لقد ذهبت هذا الصباح لمقابلته.. وعندما عدت كنت في حالة يرثى لها. هزت رأسها وقد غامت الدنيا عن نظرها:

- لا أبدا لم يكن هو. كان... ثم توقفت ونظرت إليه قائلة:

- أرجوك، لا أريد الخوض في هذا الموضوع. ودون أن تشعر تراجعت عدة

خطوات عن «كال» الذي لاحظ الأمر فورا. فسألها بقسوة:

– لا تقولي إنني أخيفك؟

– لا.. فقط عندما... توقفت مرة أخرى وقد تسللت مشاعر الضيق مرة أخرى إلى صدرها فكادت أن تخمد أنفاسها. قالت:

– لا. أرجوك دعنا نواصل الدرس. قال:

– لا أستطيع تدريبك وأنت في هذه الحالة، ليس وأنت خائفة مني بشكل واضح. انفجرت في وجهه صائحة:

– لست خائفة منك. ليس عندما تدربني، فأنت رائع عندئذ. لكن عندما تبدأ بطرح أسئلتك فإني... فإني لا أريد... واختفى صوتها في حنجرتها. لم يعد هناك مجال، فهو لن يتركها الآن. ليس قبل أن تخبره بالحقيقة كلها، أو الأصح قبل أن يجبرها على الاعتراف بالحقيقة. لكن أبدا... أبدا.. حدقت إليه بقوة ثم تراجعت مرعوبة، واستدارت راكضة إلى غرفة تغيير الملابس. وقبل أن تغلق الباب وراءها كان هو هناك ليمنع اختفاءها. قال:

– بحق السماء أيتها الفتاة، ما الأمر؟

– اذهب عني. أريد أن أغادر المكان فورا –ثم همست– أرجوك دعني.

– ليس قبل أن تخبريني بسبب خوفك. أنا لا أستطيع أن أتركك على هذه الحال.

– لا أريد أن أتحدث إليك. اذهب عني. وحاولت يائسة أن تبعده عن الباب، فكانت كمن يناطح جدارا. لم يتحرك قيد أنملة، لكنه وضع ذراعه حولها كي يسندها.

– لن أذهب. والآن أخبريني ما القصة؟ لقد أمضيت النهار كله في البكاء والنحيب، أليس كذلك؟ لم تجبه. حدقت إلى عينيه مباشرة، لكنها اضطرت إلى تحويل نظرها بفعل تأثير نظراته الحادة. الأفضل ألا تنظر إليه، وهو بالتالي لن يمسكها إلى ما لانهاية. ليست مضطرة إلى الكلام. إنه لا يستطيع إجبارها على ذلك. لكن التوتر أخذ يتزايد خاصة أنهما كانا ملتصقين في ذلك المدخل الضيق، فحاولت الإفلات من قبضته. طالبها آمرا:

– ألم تمضي نهارك في البكاء؟ هيا أخبريني.

– أجل.. أجل.. لقد بكيت طول النهار –ثم ارتدت إليه قائلة– والآن ما الذي ستفعله حول ذلك؟ ماذا يعنيك من الأمر على أي حال؟ لا شيء. أنت لست سوى إنسان فضولي.. فدعني أذهب فورا. لا يحق لك أن تمسكني رغما عن إرادتي.. إنني أكرهك... أكرهك.

– لا. أنت لا تكرهينني، وأنا فضولي جدًا؛ لأن بكاءك يتعلق بسبب وجودك في هذا البيت، أليس كذلك؟ كيف عرف هذا الأمر؟ لم تستطع أن تخفي دهشتها؛ لأنه لامس الحقيقة المجردة، وفي أية لحظة يمكن أن... استجمعت أطراف شجاعتها المتناثرة وحررت نفسها من قبضته، ثم استدارت وحملت حذاءها وملابسها العادية قائلة:

– الآن سأغيّر ملابسي، هل تسمعني؟ الآن! سألها بنعومة:

– ما هو اسمك الحقيقي؟

– «فانيسا كولينز». سبق أن قلت لك ذلك. كان الجواب سريعا، ولكن ليس بما فيه الكفاية.

– و«سميث» أيضا. أتذكرين أنك أخبرتني بذلك؟ لكني لا أصدقك!

– لا يهمني إذا صدقت أو لم تصدق، فاذهب إلى الجحيم. لا أريدك أن تعلمني شيئا. أنت حيوان ضخم فقط، وأنا أكرهك. خيمت ثوان من الصمت المتوتر على الاثنين اللذين وقفا في مواجهة بعضهما البعض دون أن يتفوه أي منهما بكلمة. وفجأة استدار «كال» خارجا وأغلق الباب خلفه، اضطرت «فانيسا» التي أصبحت داخل الغرفة وحدها إلى الجلوس؛ لأن قدميها ما عادتا قادرتان على أن تحملاها. من الواضح أنه لم يستسلم بعد، ولذلك عليها مغادرة «دينستون هاوس» بأسرع ما يمكن. فلو طالت مدة بقائها في البيت، فإن «كال» سيجد طريقة أو أخرى لاكتشاف سرها الدفين.

www.rewity.com

- 7 -

من الواضح الآن أن ما تخفيه في نفسها سيثقل عليها يوما بعد يوم، فعندما دخلت إلى المكتبة في الصباح التالي لاستئناف عملها، عاودها الشعور بالذنب. لعل التواقيع المزورة جربت هنا ساعة بعد ساعة، وفي لحظة عاجلة دس أبوها الأوراق بين الصحف؛ لأن أحدا دخل عليه الغرفة فجأة.. ثم نسيها. وفجأة عادت إلى ذاكرتها أشياء قالها جدها وتؤكد ظنونها. تذكرت كيف احتقن وجهه بأحاسيس مختلفة عندما جاء ذكر الصحف. لربما عاد إلى الماضي حين اكتشف الحقيقة. ارتدت الرداء الواقي وبدأت في إعداد مجموعة من الكتب تمهيدا لفهرستها. كان قلبها مثقلا بالهموم والأحزان، وبالإضافة إلى ذلك هناك مهمة خاصة مع «لوري» عندما يأتي إلى المكتبة. حانت فرصتها عندما كانا يحتسيان القهوة عند الساعة الحادية عشرة. كان قد وضع كتابا قديما جدًا على الطاولة وتنهد بحسرة، فسألته فورا:

– أنت تحب هذه الكتب القديمة، أليس كذلك؟ نظر إليها وتعبير من الدهشة يملأ وجهه:

– أعتقد ذلك. لكنني لم أفكر فيها من قبل. لماذا تسألين عن الموضوع؟

– فقط استغربت كيف أنك لم تتقدم للعمل في المكتبة عندما عرفت أن السيد «ماكلين» يبحث عن شخص لذلك!

– أنا؟ هز رأسه بالنفي وقال:

– لم أفكر في الأمر قط. بالإضافة إلى أنني أعمل في الحدائق. على كلٍّ، عمل المكتبة ليس من اختصاص الرجال. قاومت «فانيسا» ضحكة كادت أن تفلت منها عندما قال الجملة الأخيرة.. عليها أن تكون حذرة تماما الآن.

– بالتأكيد من اختصاص الرجال –وتابعت بسرعة– صدقني، هذا العمل يتطلب الذكاء الحاد والوعي العميق والعناية أيضا. إنني أعرف كثيرين من الرجال في هذه المهنة. وأنت بارع فيها جدًا. أجابها وكأنه يفكر في الموضوع:

– هل هذا صحيح؟ كنت أقصد مساعدتك فقط، ولم أفكر...

– ما كنت لأستطيع العمل دون مساعدتك. لم تكن كاذبة عندما قالت هذه الجملة. والآن أنت المرحلة الحرجة.

– لنفترض يا«لوري» –إنه افتراض فحسب– أنني لم أستطع إنهاء العمل لسبب من الأسباب، فهل يمكنك مواصلته؟ وضع فنجان القهوة على الطاولة بهدوء ونظر إليها بحدة وغضب.

– حسنا، هيا أخبريني بالحقيقة!

– لا شيء.. لا شيء. قاطعها بسرعة:

– دعك من هذه الادعاءات. هذه أول مرة يخاطبها فيها بهذا الشكل، وقد صدمها ذلك:

– إنني متأكد أن الملعون «كال غرين» هو المسؤول. أخبريني ماذا فعل؟ شعرت بالارتياح؛ لأن تفكيره ذهب في هذا الاتجاه. غريب! كيف تجري الأمور؟ في البدء اتهم «كال» «لوري»، والآن «لوري» يتهم «كال».

– كلا يا«لوري». ليس الأمر كما تظن. فأنا...

– اسمعي جيدا، كنت أمس على حافة الانفجار باكية، وأنا لست غبيًا بحيث لا أدرك الحقائق.

– لم أقصد ذلك قط. لامست ذراعه بيدها وقالت:

– لقد تلقيت أنباء سيئة عن... عن قريب لي، وهذا ما أزعجني. أؤكد لك أن الأمر لا يتعلق به. كل ما في الأمر أنني لست متأكدة من استمراري هنا طويلاً ولا أريد أن أترك.. السيد «ماكلين» –وكادت كلمة جدي أن تفلت منها، لكنها استدركت متابعة– في مشاكل عديدة. هذا كل ما في الأمر. حدق «لوري» إلى يدها المرتاحة على ذراعه ثم غطاها بيده الأخرى. قال بنعومة:

– من الصعب عليّ أن أرفض لك طلبا، ولكني لا أريدك أن ترحلي وأنت تعرفين ذلك تماما. سكت قليلاً ثم أضاف بابتسامة هادئة:

– هل تبقين هنا إذا رفضت أن أقوم بالعمل؟ هزت رأسها قائلة:

– لا أستطيع. سأبقى حوالي أسبوع تقريبا، وبعده سأرحل. أرجوك يا«لوري»،

ما ذكرته لك الآن أريده أن يبقى معك سرا، وأعتقد أنني أستطيع الثقة بك، أليس كذلك؟ قال لها مؤكدا:

– أعدك بأنني لن أخبر أحدا. لكنني سأحاول إقناعك بالعدول عن هذه الفكرة. ابتسمت له قائلة:

– شكرا لك. أشعر الآن بتحسن كبير. والآن، أليس من الأفضل أن تشرب قهوتك قبل أن تبرد؟ وعندما استدارت مبتعدة عنه عادت إليها الهموم دفعة واحدة. كان عليها ألا تأتي أبدا. فالسيد «مورتون» كان محقًّا في تحذيراته من الخداع والحيل والأكاذيب. لو أنها استمعت إليه، لنجت من كل هذه المأساة. عملت «فانيسا» خلال اليومين التاليين بجد ونشاط في محاولة لإنجاز القسم الأكبر من العمل قبل أن يحين موعد إبلاغ جدها بأنها راحلة. كل وجبة طعام معه تحولت إلى عذاب شديد، زاد فيه «كال غرين» الذي أخذ يعاملها بتأدب جاف وكأنه يهينها. كان يراقبها وينتظر حتى تقدم على خطوة خاطئة كي يهاجمها، فشعرت بأعصابها تكاد تنفجر. وفي أحد الأيام كانت وحدها في المكتبة عندما دخل «كال». وعلى الفور استنفرت قواها وجلست تنتظر ما يمكن أن يحمله لها هذه المرة. كان هادئا ولاماليا. قال لها:

– آسف لإزعاجك، لقد جئت لآخذ أحد الكتب. وسار إلى زاوية الكتب الحديثة التي ليست من اختصاص «فانيسا». راقبته وهي تتمنى أن ينتهي بسرعة ويغادرها كي تعود إلى عملها. وصل إلى الرف المقصود وسحب أحد الكتب بعد أن بحث في المجموعة كلها. سمعت «فانيسا» تنهيدة ارتياح منه عندما عثر على الكتاب. وفجأة التفت إليها وقال بنبرة هادئة مؤدبة:

– يجب أن تخبريني كي أنزل مجموعة الجرائد من غرفتك عندما تنتهين منها. وجاهدت «فانيسا» كي تخفي آثار الصدمة التي أثارها فيها ذكر مجموعة الصحف. فمنذ أن وجدت الورقتين لم تعد قادرة على لمس أية صحيفة، بل أعادت المجموعة إلى الصندوق ورمتها في إحدى الزوايا بعد أن غطتها بمجلات نسائية حديثة.

– لم... لم أنظر إليها بعد بسبب ضيق الوقت. خفق قلبها بشدة بحيث شعرت

به وكأنه يريد الخروج من صدرها. ترى هل أثار موضوع الصحف عامدا؟ هل عرف القصة؟ ثم تابعت:

– يمكنك أن تنزلها وقتما تشاء، فسأنظر إليها في وقت لاحق بعد أن أنتهي من العمل هنا. وأشارت بيدها إلى مجموعات الكتب المصفوفة خلفها. همهم صامتا ثم استدار:

– سأذهب وأحضرها الآن. تردد أمام الباب قليلا وقال:

– آسف، ألست قادمة معي؟

– بلى. وضعت «فانيسا» البطاقة من يدها واتجهت نحو الباب. عضت شفتها السفلى وهي تفكر، لقد أحست توبيخا مقصودا في كل كلمة أو حركة أقدم عليها، كما أحست شكًّا عميقا وقلقا مرعبا. فتح لها الباب وأفسح المجال كي تمر، ثم سار معها باتجاه السلالم. قلبها مازال يخفق بسرعة، لكن ليس بعامل الخوف بل لأنه يسير إلى جانبها. قطعا البهو والسلالم والممرات بصمت مطبق، لم ترد أن تحطمه لئلا يبدأ بطرح أسئلته الاستفزازية المعتادة. وصلا إلى باب غرفتها، فانتظر «كال» حتى فتحت «فانيسا» الباب ودخل خلفها:

– هناك، في الصندوق أسفل النافذة. لقد وضعت بعض المجلات فوقها. لحظة من فضلك. رفعت المجلات الخاصة عن الصندوق وراقبته وهو يحملها بسهولة. ثم التقت عيناه عينيها وقال بنعومة:

– هل المجموعة كلها هنا؟

– أجل، كلها. وأدركت فجأة أن الورقتين –اللتين سببتا لها كل المتاعب– ناقصتان. أغمضت عينيها للحظات وكأنها تعتصر الألم الذي انتابها. آه لو أنها لم تعثر عليهما. فتحت عينيها لتجد «كال» يحدق إليها وكأنه عرف كل شيء. أحست بألم حاد يطعنها في صدرها ويقطع أنفاسها. لا يمكن أن تحتمل الأمر أكثر، ستجن إذا لم تهرب من هذا الرجل. استدارت بسرعة واتجهت نحو الباب غير مبالية إذا كان سيلحق بها أم لا، فهي لا تستطيع أن تبقى معه في الغرفة نفسها. أغلقت الباب خلفه بهدوء، وانتظرت حتى ابتعد قليلا ثم لحقت به. سارت ببطء كي تُبقي على مسافة بينهما. وجاهدت حتى لا يبدو

الأمر متعمدا، وفي الوقت نفسه حتى لا تسير إلى جانبه. وصل إلى المكتبة قبلها بوقت طويل، بينما تباطأت هي قليلا في القاعة الرئيسية.

– لقد أعدتُ الصندوق إلى المكان الذي كان فيه.

– شكرا لك. أغلقت الباب خلفه بسرعة. لفت نظرها الفراغ الذي تركه عندما سحب الكتاب قبل قليل، وقبل أن تتوجه إلى رف الكتب ألقت نظرة خاطفة على الباب كي تتأكد أنه لن يعود. مجموعة الكتب على الرف كانت متشابهة في أغلفتها وطباعتها. حملت الكتاب المجاور لذلك الذي أخذه فوجدت أنه يتعلق بالسياحة والأسفار. عادت إلى ذهنها على الفور حقيقة أن «كال» يكتب كتابا عن الرحلات، لربما احتاج إلى مرجع لذلك. اسم المؤلف هو «كالوم كيل». ولاحظت «فانيسا» أن الاسم الأول للمؤلف هو نفسه اسم «كال» الكامل. قلبت الغلاف الأخير لتنظر إلى صورة المؤلف فوجدت رجلا كث اللحية أسودها، ثم أمعنت النظر أكثر، وكم كانت دهشتها كبيرة وعميقة عندما تأكدت أن الرجل ليس إلا «كال» نفسه. إذن «كال غرين» هو نفسه «كالوم كيل» الكاتب والرحالة والإذاعي المعروف. حدقت إليه وهما إلى المائدة وتساءلت في نفسها: كيف لم تعرف شخصيته من قبل؟ كانت قد قرأت له كتابين واستمتعت بهما، خاصة أنه يتمتع بتلقائية صافية في أسلوبه بحيث يشعر الإنسان الذي يمضي ساعات في القراءة بأنه مسافر معه فعلا، في الصحاري، ومع الرعيان في الجبال. لم تكن تتصور هذا الأمر. هذا الرجل هو «كالوم كيل». من السخرية أن يتهمها باستعمال اسم مستعار بينما هو يختبئ خلف شخصية أخرى. هناك اختلاف بالتأكيد، فاسمه المستعار كان لأغراض الكتابة. ولعل هذا هو السبب الذي جعله حساسا تجاه أسماء الآخرين. مدت «فانيسا» يدها لتناول قطعة من الحلوى وهي تتساءل عما إذا كان بإمكانها الهرب. بدأت تحس بأنها مقيدة في هذا البيت، لذلك قررت الذهاب في نزهة قصيرة، خاصة أن الأمسية دافئة ومقمرة ومنعشة.. وهي تحتاج في جميع الأحوال إلى مجال لتقليب أمورها. وبينما هم يغادرون غرفة الطعام سألت جدها قائلة:

– أرغب في القيام بنزهة قصيرة حتى الباب الخارجي، فهل هناك مانع؟

– بالتأكيد لا. اذهبي حيث ترغبين.

– شكرا لك. أنا محتاجة إلى بعض الحركة، والأمر مناسب في هذه الليلة. سوف أصعد لإحضار معطفي الربيعي. ولم تنتبه، عندما استدارت خارجة، للنظرة التي وجهها جدها إلى «كال». سارت نزولا باتجاه الباب وهي تستنشق بعمق النسيم المسائي المنعش. قسم من الممر كان مظللاً بأغصان الشجر، أما القسم الثاني فقد زينته الزهور المنوعة. ما حدث لها كان الأسوأ، ومن غير المتوقع أن تقع أشياء أكثر سوءا. لقد بدأت طاقتها تخفت بالتدريج وزاد توترها العصبي، كما تلاشت شهيتها حتى للأطباق اللذيذة التي تعدها السيدة «بانكس». الآن، وقد أصبحت بعيدة عن البيت، يمكنها أن تفكر بهدوء وموضوعية. ففي الداخل كانت الضغوط تزيدها توترا، خاصة في وجود «كال» وجدها الذي تبين لها يوما بعد يوم أنه ليس الرجل القاسي الذي وصفه لها أبوها. صحيح أنها لاحظت عنده نزعة إلى القسوة في بعض الأحيان، لكنه إجمالا الرجل الحنون والمحب واللطيف. لقد اهتم بها يوم الأحد بحيث ظل مع «موظفته» يروي لها القصص الطريفة عن أسفاره وأعماله ويرفه عنها على حساب أعماله الخاصة. هذا الجانب من شخصيته بالإضافة إلى شيء عمدت دائما إلى تناسيه وطمسه أدّيا إلى تغيير نظرتها. لقد كان أبوها ضعيفا وغبيًّا... والآن محتالا أيضا. وصلت إلى الباب الخارجي وتوقفت عنده، ثم أطلقت نظرها إلى الطريق المتعرج الممتد كشريط رمادي يلتف حول التلال والوديان. وعلى تل بعيد، بعيد... التمعت مساحات من الثلج الناصع. ركزت «فانيسا» عينيها في هذه المساحات دون أن تراها بالفعل... وأخذت قرارها النهائي. يجب ألا تكتفي بالهرب. عليها قبل ذلك أن تكتب إلى جدها رسالة تخبره فيها بالخدعة الخبيثة التي خططت لها انطلاقا من فكرة الانتقام الخاطئة. إنها مدينة له بهذا الإيضاح. وسوف تنهي رسالتها بطلب المغفرة منه دون أمل في الحصول عليها. أليست هي ابنة أبيها؟ أولم يخدع أبوها أباه أيضا؟ فـ«آندرو ماكلين» لا يمكن أن يقبل حفيدة تسير على المنهج المخادع. حبست دمعات حارة في عينيها. لا بكاء بعد اليوم، فقد انتحبت بما فيه الكفاية. «كال غرين» سيشعر بالارتياح؛ لأنه كان محقا حول

شخصيتها. وعلى الرغم من كل شيء تساءلت «فانيسا» عما إذا كان سيرتاح فعلا. كان يبدو على «كال» الإعجاب الشديد بـ«آندرو ماكلين». وفي حال إقدامه على الزواج بـ«هيثر» وإقدام «آندرو» على الزواج بـ«آن ماكري»، فإنهما سيصبحان ذويْ قرابة. شدت «فانيسا» قبضتها على خشب الباب وهي تستعيد منظر الأربعة في غرفة الطعام. كانوا يتحدثون ويضحكون ويتسامرون بينما هي الغريبة بينهم. استدارت عائدة إلى البيت. لعل «هيثر» بدأت الآن أخذ دروس في الجودو، ولكن «فانيسا» لم تتصور أنها ستسمح لشعرها المصفف بعناية أن تبعثره الحركات والسقطات. وكيف يمكن أن ترتدي بزة التدريب على حساب الفساتين الأنيقة الباذخة؟ ارتسمت على شفتيْ «فانيسا» ظلال ابتسامة وهي تتصور المشهد، لكن المؤسف أنها لن تكون هناك لتشاهد بنفسها... فتلاشت البسمة بسرعة. أسرعت عائدة إلى البيت... فبعد أن حزمت أمرها حول الرسالة، عليها أن تكتبها بأسرع وقت ممكن. كانت الأضواء تشعشع في معظم غرف المنزل. توقفت «فانيسا» للحظات تتأمل هذا البيت الكبير الهادئ. لا غرابة في أن «كال» قصده لإنجاز كتابه، فأية أجواء أفضل يمكن أن يتوقعها المؤلف؟ ولا غرابة أيضا في أن جدها يعود من أسفاره دائما -كما أخبرها يوم الأحد- وشعور بالراحة والسعادة يملؤه فور رؤية البيت. إنها تدرك الآن ما قصده من خلال الجو العابق بالسكينة الذي يحيط بالبيت من جميع جوانبه. عضت شفتها السفلى بشدة. فالقدر يمكن أن يكون قاسيا في بعض الأحيان. لقد أعطاها لمحة عمّا سيكون. والآن عليها أن ترحل بعيدا... ولابد من ذلك سريعا. واصلت سيرها إلى المدخل الرئيسي، صعدت الدرجات الحجرية وفتحت الباب على مصراعيه... فسمعت الرجلين وهما يضحكان لشيء ما في البهو. ركضت «فانيسا» إلى غرفتها وتناولت قلما ودفتر الرسائل والأظراف واستعدت للكتابة.

جاء «لوري» يوم الخميس كعادته بعد التاسعة بقليل. نظر إلى «فانيسا» فور دخوله المكتبة وقال:

- ألم تغيري رأيك بعد؟ هزت رأسها بالنفي:

- كلا يا«لوري» أنا آسفة، هل لك أن تقوم بالتسجيل بدلاً مني اليوم؟ ابتسم بهدوء:

- يظهر أنك تريدين تدريبي؟

- أنا آسفة. لم أقصد أن يبدو الأمر كذلك. آه يا«لوري» إنني حائرة وضائعة. وضعت يدها على خده، فتقدم منها قائلا:

- أرجوك يا«فانيسا»، أرجوك لا تحزني. ألا يمكن أن أقوم بأي شيء... أي شيء لمساعدتك؟

- لا، لا يمكنك عمل شيء. فكرت في الرسالة المكتوبة والمختومة في درج طاولتها، والتي تنتظر التسليم عندما يحين الوقت. رفع «لوري» ذقنها بأطراف أصابعه بحركة شبيهة بحركات «كال» وقال:

- لا أظنك ستقدمين على البكاء الآن؟ لاحظت تعابير وجهه القلقة فقالت على الفور:

- لا، أبدا. هي تعرف أنها غير قادرة على البكاء حتى لو أرادت.

- الحمد لله. مرر يده العريضة خلال شعره الكث وقال وهو يتنهد بارتياح واضح:

- ما رأيك لو أحضرت لك فنجانا من القهوة أو الشاي؟

- يا إلهي! السيدة «بانكس» سوف تقيم الأرض ولا تقعدها!

- أعرف ذلك، لكنني مستعد لإغضابها ومواجهتها إذا رغبت في فنجان.

- لا أريد ذلك. فقد تناولت فطوري قبل قليل. كانت الوجبة مرعبة فعلاً، إذ تواجدت هي و«كال» وحدهما حول المائدة. هو ببروده وهدوئه ونظراته الحادة، وهي بأفكارها وشرودها... والنتيجة أنها لم تأكل سوى قطعة صغيرة من الخبز. فقد كانت متوترة الأعصاب بحيث إنه لو أثار أي موضوع لتركت المكان على الفور. لكنه لم يفعل، لعله لاحظ مزاجها المتعكر ورأى المرارة التي تملؤها والتي لا يمكن أن تنتهي إلا بعدما تركب سيارتها وتغادر هذا المكان دون عودة.

- حسنا. إذا أردت فنجانا فقط قولي لي. فمن أجلك أنا على استعداد لمقاتلة الأسد... أقصد اللبؤة.

– شكرا لك يا«لوري»، فأنت لطيف جدًا. استدار بحياء قائلا:

– من الأفضل أن نبدأ العمل. فماذا سنفعل الآن؟

– سأعيد ترتيب هذه الكتب حسب التسلسل. وأشارت بإصبعها إلى مجموعة من الكتب التي سبق لها أن سجلتها. بدأ العمل الذي يقومان به يعطي ثماره، وكانت تشعر بالارتياح وهي ترى الكتب مرتبة في أماكنها. فخلال أسابيع سيكون كل شيء على أتم وجه في المكتبة... لكنها لن تكون هنا لترى اكتمال ما قد بدأت فيه. غاص قلبها في صدرها عندما خطرت لها هذه الفكرة: «لوري» سيكون هنا أما أنا فلا». أسرعت إلى العمل في محاولة لطرد هذه الأفكار المؤلمة. وهكذا مضى الصباح متثاقلا دون أن يكون لهذا اليوم أي معنى. فجدها و«كال» سيتناولان العشاء في الخارج، أما هي فستحضر لها السيدة «بانكس» الطعام إلى غرفتها... وهذا الترتيب يناسبها تماما في هذه الظروف. لو أنها تستطيع أن تأكل دائما في غرفتها، حتى لو وجدت السيدة «بانكس» ذلك متعبا وغريبا. وضعت الكتب التي كانت تحملها في مكانها والتفتت إلى «لوري» الغارق في عمله بجد ونشاط. أحست ببعض العزاء لأنه استطاع أن يستوعب العمل ويقوم به على أفضل وجه. ومن الأكيد أن جدها كان سيطلب منه ترتيب المكتبة لو أنه عرف سلفا قدرته على ذلك.

كان بعد الظهر هادئا بغياب «لوري». أنهت «فانيسا» عملها في حدود الخامسة ثم ألقت نظرة أخيرة على المكتبة قبل أن تتوجه إلى غرفتها. تساءلت كيف ستكون العلاقة بين «كال» و«لوري» عندما سترحل هي. ربما أحسا بضرورة ألا يتدخلا في شؤون بعضهما البعض. لاحظت مرة أخرى الرف الذي سحب منه «كال» الكتاب قبل مدة، هناك الكثير من الكتب للقراءة، لكنها وجدت نفسها راغبة في قراءة أحد كتبه على ضوء اكتشافها لحقيقته وشخصيته.

خرجت من المكتبة وأغلقت الباب خلفها بهدوء ثم أسرعت إلى غرفتها. كانت غرفة «كال» تقع في الجهة الأخرى من الممر، ومنها سمعت صوت ضربات الآلة الكاتبة، وهو الصوت الذي تردد كثيرا خلال الأيام الماضية. ثم تجاوزت الممر ودلفت إلى غرفتها. عندما بدأت نشرة أخبار الساعة السادسة مساء على

شاشة التلفاز، سمعت الرجلين يغادران البيت. وبهدوء تام توجهت إلى النافذة لترى جدها يدخل في سيارة «كال» «الجاجوار»، ثم أقلعا معا باتجاه الطريق الرئيسي.

بعد ساعة ستحضر لها السيدة «بانكس» عشاءها المكون من وجبة خفيفة، خاصة أن الرجلين غائبان. وعلى كل فإن شهيتها للأكل خفت كثيرا خلال الأيام القليلة الماضية. انحنت على النافذة تراقب السهول الممتدة حتى الأفق وقد غرق قلبها في لجة الحزن العميق. عاد إليها وجه السيد «مورتون» الرافض لخططها فتخيلت نفسها أمامه تعترف له بفشلها، فهي مدينة له بذلك على الأقل. بعد ذلك ستترك شقتها الخاصة في «لندن»، بل ربما تغادر «لندن» كلها، إلى خارج البلاد... فهي لم تعد تحتمل حياة القلق بعد الذي جرى لها هنا. أحست ببرودة إطار النافذة تلسع رأسها فتساءلت عما إذا كانت ستصاب بالرشح أو الإنفلونزا. كان جسدها متعبا، ووجهها ملتهبا بالحرارة الشديدة مع أن موجة من البرودة كانت تسري في أوصالها. ابتعدت «فانيسا» عن النافذة، فوقعت عيناها على كتاب «كال»، تناولته وأقفلت جهاز التلفاز ثم ألقت بنفسها على المقعد الوثير. أعجبتها المقدمة التي تحدث فيها عن كيفية تحويله سيارة «لاندروفر» إلى بيت على عجلات، واستعمالها في رحلة طويلة إلى مجاهل «إفريقيا». أعجبتها؛ لأن الكتاب ليس مجرد رقم على أحد الرفوف، بل هو من تأليف الرجل الذي أنقذها من اثنين من الرعاع... والذي يشك فيها ولا يحبها. توقفت «فانيسا» فجأة عن القراءة وقلبت الكتاب لتعيد التأمل في الصورة المنشورة على الغلاف الأخير. إنه يبدو مختلفا في اللحية، ومع أنها لم تعجب به إلا أنها اعترفت بأن اللحية تناسبه تماما. أحست بعينيه، حتى في الصورة، وهما ترمقانها وتسخران منها بغموض شديد. تنهدت بعمق وأعادت فتح الكتاب على الصفحة التي كانت تقرؤها. ومع ذلك ظل خيال المؤلف يهاجمها بإلحاح على الرغم من أنها بذلت جهدا للتركيز في الموضوع. لقد لمسها صاحب الكتاب واحتضنها، بل وعلمها كيف تسقط بأمان... كما أنه كان لطيفا في أحيان قليلة. وأحست «فانيسا» بدفء يتدفق في كل جسدها وهي تتذكر ذراعيه

القويتين وعينيه الحادتين.... أغلقت الكتاب بعنف وتوجهت مرة أخرى إلى النافذة. ودون أن تدري أحست بأصابعها تلامس شفتيها. لقد عانقها بقوة... إنه الرجل الأول الذي يفعل ذلك دون أن يبدو عليه التأثر. وعلى امتداد نظرها ترامت الحدائق والسهول لتقف في النهاية على أعتاب تلال رمادية اللون مكللة بالثلوج البيضاء التي لن تذوب أبدا، لأن الحرارة هناك لا يمكن أن ترتفع إلى الدرجة التي يذوب معها الثلج. سمعت قرعا على الباب فاستدارت لاستقبال السيدة «بانكس»، وارتاحت لأنها جذبتها من أفكارها المتضاربة. وبعد أن تناولت الطعام بدا لها كأن الليل يتمطى إلى ما لا نهاية. ولتمرير الوقت، أنزلت صينية الطعام إلى المطبخ ثم عادت لتشاهد مسلسلاً كوميديًا يعرضه التلفاز... وظلت هكذا حتى حان موعد الأخبار. أدركت أنها لن تستطيع النوم بسبب فكرها المشوش، لذلك قررت القيام بنزهة قصيرة في المساء البارد والمنعش، لعلها تتعب نفسها قليلا فتعود إلى النوم فورا. ارتدت «فانيسا» معطفا صوفيًا ثقيلا، وأطفأت جهاز التلفاز ثم غادرت المنزل. في الخارج كان الهواء باردا ومنعشا. سارت حول المنزل باتجاه المدخل الخلفي، ثم نهاية الممر الذي أصبح أكثر حلكة. توقعت أن تصل إلى موقف سيارات البيت إذا ما أكملت سيرها بالاتجاه نفسه، وبعد دقيقة شاهدت مجموعة من البيوت المسقوفة التي كانت في يوم من الأيام إسطبلات للخيول. كانت مواقف السيارات مضاءة بنور ساطع معلق على سطح أحد البيوت. وقفت تحت النور تتأمل المكان. شاهدت سيارتها خلف باب نصف مغلق، وإلى جانبها مكان خال حيث تقف سيارة «كال» عندما يكون في البيت. وتساءلت عما إذا كان الرجلان سيتأخران في العودة. هل يهمها هذا الأمر فعلا؟ واستغربت كيف جاءها وجه «هيثر» الجميل وعلى ثغرها تلك الابتسامة الموجهة إلى «كال». حثت «فانيسا» خطواتها مسرعة، وقد صممت على اكتشاف نهاية هذا الممر قبل مغادرة البيت. وكلما توغلت في الممر، كانت الأشجار تزداد كثافة، والطريق يتعرج ويضيق، والظلام يشتد حلكة. ولم تكن تسمع سوى وقع خطواتها على الحصى... وزقزقة عصفور أزعجه وجودها في ذلك الوقت. وأخيرا وصلت «فانيسا» إلى البحيرة. كانت

صغيرة المساحة وفي وسطها جزيرة متصلة بالبر بجسر خشبي جميل تزينه صخور رصفت بشكل هندسي بديع. وعادت إلى ذهنها صور غامضة عن مكان معين حدثها عنه أبوها كساحة أمضى فيها طفولته الجميلة. لا شك في أن هذا هو المكان. البحيرة والجزيرة ملعب خصب لمخيلة طفل غض. طفرت الدموع من عينيها، لأن الذكرى أعادت إليها كل الماضي بأحزانه وآلامه. اقتربت من الجسر حتى وطئت عتباته الأولى. الخشب عتيق ويحتاج إلى دهان جديد، لكنه مازال صالحا للاستعمال. جربت بقدمها قدرة الخشب على الاحتمال، فسمعت صريره في سكون الليل الدامس... ومن مكان ما حمل الصدى نعيق بوم بعيد. استدارت مبتعدة عن الجسر. لن تقدم على زيارة الجزيرة الليلة، لعلها تفعل غدا ولكنها تدرك في قرارة ذاتها أنها لن تطأها أبدا، لا اليوم ولا غدا... ولا بعد غد. وفي مكان مطل على البحيرة عثرت «فانيسا» على مقعد خشبي تظلله نباتات عالية. جلست عليه لتراقب بعض الزهور التي أينعت أزهارها على سطح البحيرة الساكن. ووسط السكون الطاغي انهمرت ذكرياتها بشكل ملحٍّ. ذكريات عن والدها عندما كانت أصغر سنًّا وأكثر انطلاقا وفرحا... هكذا تصورت تلك المرحلة التي كانت تعتقدها أفضل سنوات حياتها. وبعد ذلك جاءت المأساة التي دفعت «فانيسا» إلى هذا المكان سعيا إلى الانتقام. لقد انتهت الرحلة تقريبا إلى الفشل الذريع. وحيدة؟ صحيح أن لديها العديد من الأصدقاء من الجنسين، لكن هؤلاء كلهم لا يحلون المشكلة. فهي قد سئمت من الاستقلالية المطلقة وباتت تحتاج إلى من تعتمد عليه. خيمت الوحدة على عينيها ووجهها وهي تحدق إلى الظلام اللامتناهي. وفي هذه الأثناء بدأت نجوم ستفرقة تلمع في السماء الصافية وقد ازدادت برودة الهواء. لم تشعر «فانيسا» مرة في حياتها بالوحدة والضياع كما تشعر الآن. داهمتها موجة مفاجئة من البكاء واليأس فدفنت وجهها بين راحتيها وأخذت تنتحب بصمت. كانت على هذه الحال عندما عثر عليها «كال» بعد عدة دقائق. لم تره في بادئ الأمر، بل لم تر شيئا، لأن عينيها كانتا غائبتين خلف راحتيها المتماسكتين. وعندما شاهدته، رأت على وجهه تعابير جدها نفسها عندما عثر عليها وهي تنتحب في غرفتها.

تهدّلت كتفاها بإعياء حتى بدت وكأنها ستنهار تحت وطأة الهم والتعب، في حين وقف «كال غرين» قبالتها يراقبها بصمت واهتمام دون أن يبدي وجهه أية تعابير أخرى، وكأنه يرتدي قناعا. وأخيرا تقدم منها ولمس كتفها بلطف:

– «فانيسا»؟ نظرت إليه فزعة وقالت:

– ارحل عني! خرجت العبارة من فمها دون أدنى تفكير، إنها لا تريده الآن، بل لا تريد أي إنسان في هذه اللحظات. لكنه موجود إلى جانبها سواء أرادت أم لم ترد.

– لن أرحل. لقد تأخر الوقت وخيم الظلام، وربما ضعت في الحدائق! تضيع؟ يا له من تعبير طريف! لو أنه يعرف فقط كم هي ضائعة فعلاً.

– لا أريد الذهاب. أنا أعرف طريق العودة وحدي. فدعني على انفراد، أرجوك. نظرت إليه مباشرة غير مبالية بما يمكن أن يلمحه في وجهها. لا شيء يهم الآن، فقط تريد أن ترحل بعيدا... بعيدا.

– هيا بنا، فالبرودة أصبحت قاسية وقد بدأت ترتجفين. كانت ترتجف بالفعل مع أنها لم تحس بذلك. مررت راحتيها على ذراعيها فشعرت بقشعريرة البرد. وبينما هي كذلك سمعت حفيف قطعة ثياب. ثم شعرت بدفء سترته السميكة على كتفيها. مدت يدها تلامس السترة الجلدية وهي تقول:

– لكنك.

– أجل، ويمكن أن أظل الليل كله في هذا المكان مرتديا قميصي فقط. فهلاّ أتيت معي؟ وجدت «فانيسا» نفسها واقفة على قدميها دون أن تدري ما إذا كان قد ساعدها على النهوض أم أنها استطاعت ذلك بمفردها. سارا باتجاه البيت وقد عاد الدفء يسري في جسدها وقد شدت السترة بيديها الاثنتين. قالت بعد لحظات من الصمت الثقيل:

– شكرا لك لأنك أعرتني السترة. نظرت إليه وهو يسير إلى جانبها في حين ظهر قميصه الأبيض واضحا في ذلك الظلام الحالك:

– لكن هل أنت متأكد...؟ قاطعها قائلاً:

– أنا لا أتأثر بالبرد. ومد يده ملامسا يدها وأضاف:

– هل تشعرين؟ كانت يده دافئة. لم تستمر اللمسة إلا لحظات قليلة، لكن «فانيسا» ظلت تحس بدفئها حتى بعد أن سحب يده... ثم انتقل هذا الدفء بسرعة بحيث شعرت بأن جسمها كله يشتعل. وقالت بسرعة في محاولة لإخفاء اضطرابها:

– لم أعتقد أنك ستعود باكرا!

– كلا. نحن إجمالاً لا نعود باكرا، لكن السيدة «ماكري» لم تكن على ما يرام لذلك... ثم توقف. وفكرت «فانيسا» بسرعة: من الأكيد أن «هيثر» لم تكن مسرورة لذلك. وغير مجرى الحديث قائلا:

– لم يكن النور مضاء في غرفتك، وقد أبلغتنا السيدة «بانكس» أنها سمعتك تغادرين البيت منذ مدة طويلة. هل صحيح أنها أمضت زمنا طويلا في الخارج؟ لقد بدا لها أن الوقت لم يكن سوى لحظات فقط.

– لذلك فكرت في أن ألقي نظرة لأرى ما إذا كنت قد ذهبت بسيارتك، ولما وجدت السيارة في مكانها تأكدت من أنك في نزهة ليلية.. وهكذا وجدتك. لم يكن هذا هو «كال» الذي تعرفه. شيء ما غير عادي موجود في تصرفاته، لكن «فانيسا» لم تستطع أن تحدد بأي شكل هو مختلف. لقد أحست بالتغيير، وظلت حائرة حتى أوت إلى فراشها فبدأت تعيد رسم الصورة بوضوح. بعد ساعة كانت تجلس في فراشها تتناول فنجانا من الشوكولاتة الساخنة، استعادت رحلة العودة مع «كال» من البحيرة، وفكرت فيها بهدوء وروية. لم تكن قادرة على أن تفعل ذلك عند وصولها؛ لأن جدها كان بانتظارها قلقا، وفور رؤيتها قال:

– هأنت قد رجعت. هيا ادخلي يا عزيزتي... هيا ادخلي.. واحتضنها بين ذراعيه وأدخلها إلى الصالة. ولسوء حظ «فانيسا» زاد هذا التصرف الأبوي من حدة أفكارها المتناقضة فيما يتعلق بالموقف من جدها كما هو في الواقع وكما رسمه لها والدها من قبل. تمكنت من الانسحاب بعد قليل مدعية بأنها متعبة، وطلبت منهما الإذن بالانصراف، فأذنا لها. لكن تعابير «كال» ظلت مسيطرة عليها حتى وهي مستلقية في فراشها الآن تشرب فنجان الشوكولاتة اللذيذة التي أعدتها السيدة «بانكس». إنها تدرك مغزى التغيير الذي حصل،

لقد كان يتصرف بطريقة مختلفة تماما، بل إنه ينظر إليها بأسلوب مختلف عن تلك الطريقة الباردة التي كانت تشعرها بعدم الارتياح. كان كمن اكتشف شيئا جديدا. لكن ما هو هذا الاكتشاف؟ وظل السؤال يحير «فانيسا» لفترة من الوقت، ثم جاءها الجواب ومعه الشعور بالانزعاج: «لا شك في أنه عرف من هي في الواقع!» وضعت الفنجان من يدها خوفا من أن تسكبه على نفسها بفعل الاضطراب. «آه يا ربي» نطقت هذه العبارة بصوت عالٍ رغما عنها. إنه يعرف. لم تكن تعلم كيفية اكتشافه للحقيقة، لكنها تأكدت الأمر، ولهذا السبب عليها أن ترحل في أسرع فرصة، عليها أن تغادر «دينستون هاوس» إلى الأبد.

- 8 -

استعادت «فانيسا» هدوءها في صباح اليوم التالي،وتوجهت لتناول فطورها وهي على أتم الاستعداد لكل الاحتمالات. لو أراد «كال» أن يثير موضوع شخصيتها مجددا لكان فعل ذلك مساء أمس عندما كانت ضعيفة ومنهارة وقابلة للهزيمة، لكنه لم يفعل. هل يعني ذلك أنه يخبئ المعركة إلى وقت لاحق؟ لم تجد «فانيسا» جوابا، الشيء الأكيد أنها يجب أن ترحل بسرعة. لذلك ستغادر «دينستون هاوس» غدا السبت، بعد أن تضع الرسالة بشكل تستطيع السيدة «بانكس» أن تعثر عليها فورا. وخلال النهار، راقبت «فانيسا» «لوري» وهو يعمل في المكتبة فهي تريد أن تتأكد أنه قادر على إتمام العمل على الوجه الأكمل قبل مغادرتها. لن تخبره بموعد رحيلها، لكن وداع الغداء هذا اليوم سيكون الوداع الأخير دون أن يدري. كان مرحا كعادته وأكثر، وكأنه أراد أن يبعد عن فكره حقيقة كونها راحلة. وعند الساعة الحادية عشرة تناولا القهوة معا. وقد كان من الواضح أن «لوري» يتمتع بعمله؛ إذ إنه مضى في حديث لا ينتهي عن الكتب ومحتوياتها وسجلاتها. ارتاحت «فانيسا» لهذا الجو؛ لأنها لن تضيف عقدة ذنب جديدة بسبب المكتبة إلى العقد العديدة التي تشعر بها حاليًا. عند الساعة الواحدة نظر إلى ساعته وانتصب واقفا وهو يقول:

– حسنا سأذهب الآن، فعليّ إنجاز بعض الأعمال في الحديقة. إنني أحب هذه الحياة: المكتبة... وأنت عند الصباح، والحدائق بعد الظهر. ابتسمت «فانيسا»:

– أنا مسرورة لذلك. فقط أستغرب كيف أنك لم تكتشف قدرتك في هذا العمل قبل الآن وتتقدم له... فأنت قادر عليه أفضل مني؟ هز رأسه قائلا:

– مستحيل. فما كنت لأقبل العمل في المكتبة أساسا لو لم ألتقِ بك في الممر ذلك اليوم. ابتسمت:

– شكرًا لك يا«لوري»، ووداعًا. وكانت تريد أن تضيف شاكرة إياه على المساعدة التي قدمها، لكنها خشيت أن يشك فيها؛ لذلك اكتفت بالصمت وراقبته وهو يتجه نحو الباب. قال:

– سأراك إذن يوم الاثنين... وأغلق الباب قبل أن تهمس:

– لا... لن تراني بعد اليوم. انتظرت في المكتبة للحظات كي تتأكد مغادرته البيت، ثم خرجت بدورها. كان «كال» بمفرده في غرفة الطعام، فأخذت «فانيسا» نفسا عميقا واتجهت إلى مقعدها:

– أرجوك.. لا تزعج نفسك بالوقوف. نطقت بهذه العبارة عندما حاول الوقوف ليرحب بها. جلست وهي تنظر إليه ببرود؛ إذ إن شيئا ما تغير في علاقتهما بعد أحداث الليلة الماضية قرب البحيرة. كانت تتوقع أن تشعر بالخوف من الحقائق التي يعرفها، ولكن لاستغرابها الشديد لم تخف، ولم تعرف السبب في ذلك. فكرت وهي تتناول الحساء: «لعل السبب يكمن في أنها ستغادر المكان قريبا ولن تراه بعد ذلك أبدا». وقفت يدها بملعقة الحساء قريبا من فمها. لن تراه أبدا... أبدا! ثم نظرت إلى أعلى وتساءلت بصمت: «هذا أغرب وقت ممكن أن يكتشف الإنسان أنه يحب الشخص الذي اعتقد أنه يكرهه». أعادت الملعقة إلى طبق الحساء، فنظر «كال» إليها قائلاً:

– ما الأمر؟ هل الحساء سيئ؟

– كلا، كلا.. فقط... كم سيبدو الأمر مضحكا إذا أبلغته الحقيقة وقالت في نفسها: «لقد أدركت لتوي أنني لا أكرهك أبدا، بل أعتقد أني أحبك كثيرا».

وتخيلت الضحكة المجلجلة التي سيطلقها عند سماعه كلامها.. لذلك قالت:

– لا أريد هذا الحساء! أما هو فقد رفع حاجبيه استغرابا.

– لكنك منذ مدة لا تأكلين أي شيء. هل أنت مريضة؟

– لا.. لست مريضة. وأضافت لنفسها بابتهال: «أرجوك دعني وحدي... أرجوك دعني وحدي». الآن فقط عرفت سر حفظها لتفاصيل وجهه الكاملة منذ اللحظة الأولى التي طالبها فيها بمعرفة اسمها. لم يعد في اليد حيلة، عليها أن تعيد النظر إلى ذلك الوجه ذي الملامح الداكنة، المليء الآن بالقلق. «كال» قلق؟ من الصعب أن تصدق، لذلك قررت مغادرة الغرفة. وقفت فجأة:

– أريد أن أعود إلى غرفتي، أرجوك أن تعذرني وتبلغ السيد «ماكلين»... وكادت أن تقول جدي دون وعي:

– بلّغه أنني متعبة قليلا. وخطت باتجاه الباب دون أن يحاول «كال» إيقافها أو حتى النطق بكلمة واحدة. وشكرت «فانيسا» ربها، لأن «كال» لم يحاول منعها، فلو فعل لكانت انفجرت باكية. انتظرت حتى سمعت جدها يدخل إلى غرفة الطعام، فتسللت من غرفتها وغادرت البيت. سارت دون هدف، فقط تريد الابتعاد عن المنزل لفترة قصيرة. أسرعت إلى موقف السيارات فوجدت الباب مفتوحا وسيارتها تنتظر. عبثت أصابعها في حقيبة يدها حتى عثرت على مفاتيح السيارة، ثم عبرت بسرعة إلى الموقف، لم يدر محرك السيارة في بادئ الأمر، إلا أنه زمجر أخيرا بعد محاولات عدة. إنها تحتاج إلى نزهة قصيرة تعيد الوضوح إلى ذهنها والطمأنينة إلى نفسها، هي تعرف إلى أين تقصد. فالطريق يمتد متعرجا بين التلال باتجاه ما كان في الماضي قرية صغيرة منعزلة. أما الآن فلم يعد هناك إلا جدران شبه مهدمة صارت مأوى للقطعان عندما تهب الرياح العاصفة. صحيح أن المنطقة خالية جدًا إلا أنها تبعث الطمأنينة في النفس. قادت سيارتها باتجاه الباب الرئيسي، فالتقت بـ«لوري» الذي لوح لها بيده. ربما من الأفضل أن تكتب إليه كلمة قصيرة، فهذا حق الصحبة عليها. سار الطريق متعرجا في ذلك المساء البارد المنعش، فأنزلت «فانيسا» شباك سيارتها تاركة الهواء ينساب ناعما على وجهها وشعرها. حان وقت

تأمل الطبيعة لاختزان بعض جمالها للأيام الصعبة الآتية. إن قلة من الناس يقصدون هذه الناحية. إلى اليسار منها تناثرت مستنقعات وبحيرات لا حصر لها، أما إلى اليمين فقد كانت التلال موزعة دون ترتيب. أعجبت «فانيسا» بعزلة هذه المنطقة عن العالم، وتساءلت عن كيفية العيش بعيدا عن كل الناس، وسط الأشجار والنباتات والمياه والتلال التي تغطيها الثلوج في معظم أشهر السنة. عبرت الممر باتجاه ساحة خضراء قريبة، ثم أوقفت محرك السيارة. خيم صمت شامل لم يقطعه سوى صوت المذياع... قبل أن تسكته «فانيسا» أيضا، وتبدأ نزهتها على القدمين. تريد أن تفكر في الاكتشاف المفاجئ الذي داهمها بشأن مشاعرها تجاه «كال»؛ إذ حتى الموسيقى كانت تتآمر عليها، فالأغنية العاطفية التي كان يبثها المذياع انسابت بموسيقى شجية آسرة بحيث لم تستطع «فانيسا» إلا أن تتذكر «كال» عندما جاءت كلماتها التالية: «لكن لماذا أحبك؟ أتمنى لو أستطيع الهرب من قسوتك وجفائك»... لذلك أسكتت المذياع بنزق وأغلقت باب السيارة خلفها بقوة. إنها مصادفة. همست لنفسها تردد كلمات الأغنية «لكن لماذا أحبك؟». لم تستطع مقاومة وجه «كال» عندما طغى على مشاعرها وأفكارها، والصورة التي عادت إلى ذهنها هي صورته، اللقاء الأول في المقهى حين رفع عينيه عن الصحيفة واختلس نظرة خاطفة إليها، وكذلك صورته عندما تغلب على الشابين بسهولة عجيبة، ثم نقاشهما الحاد في أكثر من مناسبة. وتذكرته لطيفا في عناقه، قاسيا في تساؤلاته الملحة، وأخيرا الاهتمام البالغ كما حدث اليوم. ولكن الحدث الأهم كان مساء أمس عندما أحست بدفء سترته تلامس كتفيها الباردتين. كان طريق العودة إلى البيت مختلفا تماما أمس، والآن فقط أدركت لماذا. فلا شك في أنه عرف الحقيقة.

أخذت نفسا عميقا وجلست على أطلال حائط زراعي مهدم ثم مدت يدها إلى نعجة كانت تراقبها بخوف. همست لها: «تعالَيْ!» لكن النعجة هزت رأسها واستدارت بعيدا. الصمت في كل مكان. ومن بعيد كانت تأتي بين الحين والآخر أصوات بعض الحيوانات. لا سيارات ولا ناس، فقط سكون هذه الأمسية الصيفية الدافئة التي كانت نقطة تحول في حياة «فانيسا». فلم تكن

تتصور نفسها في علاقة حب، ولم تكن تتصور أنها ستنظر إلى رجل ما وتحس هذا الخدر اللذيذ الذي ينشأ عن الشعور بالحب.

يا إلهي! كم كنت غبية! أطلقت هذه الصيحة بصوت عالٍ مطمئنة إلى أن أحدا لن يسمعها. منذ انطلاقها من «لندن» إلى «اسكتلندا» وهي تتساءل عما إذا كانت ترتكب خطأ جسيما بمغامرتها هذه. والآن جاء الجواب بالإيجاب؛ إذ بعد أن التقت جدها وتعرفت إليه ولو بشكل غير كامل، فإنها حصلت على صورة أشمل من تلك التي قدمها لها أبوها. نظرت «فانيسا» إلى أحد البيوت المجاورة دون أن تستطيع الرؤية، فقد كانت أفكارها مع والدها الذي أحبته بجنون... والذي أدركت الآن أنه ارتكب أخطاء وسيئات مثل أي إنسان آخر، ولربما أكثر من أي إنسان آخر. وأكثر ما آلمها معرفتها بأن الإنسان الذي أحبته بعمق ليس كاملاً. عليها أن تتلف الورقتين الشاهدتين قبل رحيلها؛ وذلك من أجل أبيها وجدها على حد سواء. ثم ستبني حياة جديدة بعيدا عن آلام الماضي، والزمن كفيل بالجراح العميقة، وستجد بعد حين أن «دينستون هاوس» والناس الذين يعيشون فيه ليسوا سوى ذكرى لا تحرك في نفسها شيئا. ربما... وقفت «فانيسا» فجأة واستأنفت السير.. ما تحتاج إليه الآن أن تهيم على وجهها في الريف دون هدف ودون إزعاج من أحد. خاضت في الحقول الخضراء الندية وهي تشعر بسعادة غامرة لاحتكاكها بالطبيعة الهادئة الجميلة، وابتعدت عن الطرقات المطروقة فلم تعد تجد إلا الأشجار والصخور وبعض الأغنام التي ترعى في ذلك الريف المنعزل. ظلت تصعد التلال حتى وصلت إلى جدول مائي ينحدر عذبا رقراقا وقد انعكست عليه أضواء المساء الخافتة. وقفت «فانيسا» قليلاً وأخذت ترطب يديها ووجهها بالماء البارد المنعش، ثم شربت بعض قطرات منه... وتابعت مسيرتها. ازدادت الأشجار كثافة، ولاحت أمامها بداية غابة واسعة من أشجار الصنوبر والسنديان. عما قليل ستدخل هذه الغابة الغامضة وتضيع في لانهايتها. دخلت بين الأشجار المتشابكة فأحست بالبرودة تشتد بحيث أخذت ترتجف، لكنها واصلت تقدمها وكأنها مسحورة بالخضرة الطاغية المحيطة بها وبصوت تكسر أغصان الصنوبر اليابسة تحت قدميها.

الهواء ملي، بالرطوبة الباردة، فالشمس لا تصل إلى داخل الغابة بل تكتفي بملامسة رؤوس الأشجار التي تزداد تطاولا وضخامة.

وقفت «فانيسا» في مكانها لحظة وأطلقت نظرها إلى أعلى، حيث جذوع الأشجار تمتد وتمتد. شعرت بأن الأغصان تطبق عليها والأشياء تدور حولها بسرعة غريبة مفاجئة، فاستندت إلى أقرب شجرة لتتدارك السقوط. وعرفت على الفور أنها جائعة جدًا فهي لم تتناول في العشاء إلا عدة ملاعق من الحساء قبل أن تنظر إلى «كال» وتكتشف أنها تحبه... وبعد ذلك فقدت شهيتها. بدا لها أن الغابة أصبحت أكثر برودة وأشد ظلاما. فقررت عدم مواصلة التقدم، لم تعد تنفعها الأفكار والتحليلات، الشيء الوحيد الباقي لها هو أن ترحل بعيدا.. بعيدا... عندما تعود إلى «دينستون هاوس» سوف تجهز حقيبتها للمغادرة. سمعت صوتا خافتا يشبه حفيف أوراق الشجر اليابسة عندما تدوسها الأقدام، وعندما خرجت من البلل، بل رفعت وجهها إلى السماء لتستقبل رذاذ المطر المنعش على بشرتها. عادت باتجاه سيارتها وقد أخذت الأرض توحل تحت قدميها. دخلت السيارة وأدارت محركها. علا الزئير وسط الصمت الطاغي، لكن العجلات دارت في مكانها دون أن تتحرك السيارة قيد أنملة. أطفأت المحرك ثم جربت مرة أخرى وقد اعتراها القلق. قفزت السيارة خطوات إلى الأمام قبل أن تغرق عجلاتها مرة أخرى ولم تراوح مكانها. أطفأت المحرك وخرجت لتفحص العجلات، فوجدت العجلتين الخلفيتين غارقتين تماما في الوحل. «يا لهذا الحظ السيئ!» فبعد كل الذي حصل، يحدث هذا. لو أنها انتبهت للمكان قبل أن تتوقف فيه؟ لا فائدة الآن من الوقوف تحت المطر دون معنى... بحثت «فانيسا» حولها عن أغصان أو أحجار أو ما شابه مما يمكن أن يوضع تحت العجلتين الخلفيتين لمساعدتها على الإقلاع، لكنها لم تجد شيئا... على الأقل بالقرب منها. وأدركت أن عليها العودة إلى الغابة لإحضار بعض الأغصان اليابسة. فالمطر يزداد غزارة والظلام يشتد، وكلما أسرعت في الذهاب كان الأمر أفضل. ومع أنها لم ترحب بفكرة العودة إلى الغابة المظلمة الرطبة، إلا أنها مضطرة إلى ذلك. توجهت عائدة إلى الغابة بخطى مسرعة جدًا.

فالأمر ملحٌّ، والمطر لا يرحم. ركضت نحو أول شجرة وانحنت تجمع الأغصان اليابسة والجذوع المتساقطة... وفجأة سمعت صوت محرك سيارة يزداد وضوحا كلما اقترب من الغابة. سيارة في هذا المكان؟ وللحظات، وقفت «فانيسا» في مكانها تصغي غير متأكدة أن أذنيها لا تخونانها. ليس في الأمر خطأ فصوت المحرك أصبح واضحا وقريبا. أسرعت نحو طرف الغابة ونظرت إلى سيارتها غير البعيدة.. وهناك شاهدت سيارة «كال غرين» تقف إلى جانبها. تجمدت في مكانها، وخليط من العواطف المتضاربة يعصف بها. ماذا يفعل هنا؟ من الأكيد أنه لم يأت مصادفة إلى هذا المكان بالتحديد! هل هو وحده؟ وشاهدته يخرج من سيارته ويتوجه إلى سيارتها باحثا عنها. على الأقل إنه ليس مع الجميلة «هيثر» فهي لا تحتمل رؤيتهما معا. تذكرت أن حقيبة يدها في السيارة، ترى هل يفتحها ويعبث بها؟ سمعت «فانيسا» صوت إغلاق باب السيارة بقوة. لا فائدة من الوقوف هنا، بل عليها أن تخرج لملاقاته خاصة أنها تحتاج إلى مساعدة... لا شك في أنه سيقدم يد المساعدة بالتأكيد ممزوجة بالسخرية، ولكنها اعتادت منه ذلك. غادرت الغابة وأخذت تعدو باتجاه السيارتين. كانت مستعدة لتحمل سخريته وتهكمه، ولكن لن تتحمل غضبه أبدا... رأته يستدير نحوها ويراقبها وهي تقترب. وما إن دنت منه حتى سمعت ما عكس لها طبيعة مزاجه. قال بصوت غاضب آمر:

– ما تظنين نفسك فاعلة في هذا المكان؟ جمدتها الصدمة في مكانها:

– ماذا؟

– قلت: ما تظنين نفسك فاعلة هنا؟ كانت عيناه مشتعلتين بالغضب... هذا الغضب الذي يؤثر كثيرا في «فانيسا». فجأة انفجرت ضاحكة. لعل التوتر الزائد أطلق هذه الضحكة الهستيرية التي سرعان ما تحولت إلى دموع منسكبة على وجنتيها. أمسك «كال» بذراعيها وهزها بقوة:

– كفى! توقفت فجأة وكأنها أسيرة ذلك الصوت العميق الغاضب. ظل ممسكا بها وهي تتساءل في نفسها عن ردة فعله لو قالت له: «إنني أحبك يا«كال»، فأرجوك ألا تمسني.. لأنك لو فعلت فإنني أريد أن أعانقك طويلاً». ووقفت

تنظر إليه شاحبة الوجه، وقلقة من جراء الأفكار التي تجول في ذهنها. فجأة ارتخت عضلات وجهه وأطلق سراحها قائلاً بهدوء:

– حسنا، أعتذر لأنني صرخت فيك. لكن اسمعيني للحظات. لقد اختفيت دون أن تتناولي شيئا في العشاء، ذهبت بسيارتك إلى مكان لا يعلمه إلا الله... ولساعتين كاملتين لم يبد أي أثر لك... ساعتان! كانت تحس أنها أمضت عدة دقائق فقط في الغابة، لكن نظرة سريعة إلى ساعة يدها أكدت لها صدق كلامه. نظرت إليه وقالت:

– أنا أستطيع أن أذهب في نزهة مسائية عندما أريد –ثم أضافت بهدوء– لست أرى سببا لكل هذا الغضب من قبلك!

– الغضب؟ بالتأكيد غضبت. فقد اعتقدت أنك هربت. اتسعت حدقتاها بفعل الصدمة... أما هو فقد نظر إليها بابتسامة سخرية وأضاف:

– لقد ذهبت وتحدثت إلى «لوري». توقف قليلاً. وانتظرت «فانيسا» ممسكة بأنفاسها، لأنها تعرف ما سيحدث... ولا تستطيع فعل شيء لإيقافه.. وتابع قائلاً:

– سألته عما إذا كان يعرف مكانك؛ إذ لا فائدة من البحث عنك إذا ما كنت تقضين أوقاتك معه. وكان من الواضح أن سؤالي صدمه وجعله يضطرب. استدارت «فانيسا» بعيدا عن نظراته الحادة، إلا أنه وضع يده على ذراعها بلطف وقال:

– لقد حصلت على الحقيقة منه بشكل أو بآخر. إنك تخططين للرحيل... وصاحت بألم مشوب بالغضب:

– مسكين «لوري».

– لا تلوميه. فما كنت لأتركه دون أن يخبرني بكل شيء... ردت بمرارة واضحة:

– لا شك عندي في ذلك أبدا.

– صحيح.. ولكنه لم يخبرني بمن تكونين. لم تكن هناك ضرورة، فقد عرفت وحدي. شعرت وكأنها ستغيب عن الوعي. نظرت إليه بتساؤل:

– هل يعرف هو أيضا؟ لم يكن من الضروري أن تذكر اسم جدها، فالأمر واضح تماما لهما معا.

– لا أحد غيري يعرف الحقيقة.

– كيف... كيف عرفت؟ خرجت كلماتها بصعوبة بالغة. وفجأة بدا لها العالم مكانا مرعبا لا مجال للهرب منه، وأحست بالأرض تميد تحت قدميها وكأن زلزالا مدمرا ضربها. أما «كال» فقد كان هادئا صامتا ولامباليا. بدأت ترتجف رغما عنها، فاضطر إلى إمساكها من ذراعها قائلاً:

– ادخلي إلى سيارتي.

– كلا. وحاولت أن تخلص ذراعها من يده، لكن قبضته الحديدية لم تمكنها من ذلك.

– بلى. لن تظلي هنا تحت هذا المطر، فأنت مبللة تماما، وإذا ما أصبت بالإنفلونزا فلن يكون بإمكانك الرحيل إلى أي مكان. قادها نحو السيارة وفتح لها الباب، فألقت نفسها على المقعد منهوكة القوى. استدار وجلس بالقرب منها، ثم أدار التدفئة الداخلية، فملأ الهواء الساخن جو السيارة الباردة. أسندت «فانيسا» ظهرها إلى مقعد السيارة وأغمضت عينيها طلبا للراحة. قال شيئا لم تسمعه لكنها أحست بكومة أوراق بين يديها، فنظرت إليه وهو يقول:

– امسحي وجهك وشعرك. هيا افعلي ما أطلبه منك الآن. لعل من الأسهل أن تنفذ أوامره بدلا من الجدال اللامُجدي. قال وهو يراقبها:

– تسألينني كيف اكتشفت الحقيقة؟ كانت قد بدأت تنشف شعرها الطويل. طلب منها أن تخلع معطفها المبلل، لأن السيارة صارت دافئة. فعلت بإذعان وانحنى لمساعدتها في تخليص ذراعيها ثم رمى المعطف على المقعد الخلفي. تابع قائلاً:

– لقد خمنت ذلك. في البداية كنت غير مرتاح لشخصيتك. شعرت بوجود شيء غريب لم أعرف ما هو... إلى أن كانت الليلة الماضية. لم تنبس «فانيسا» ببنت شفة، تركته يروي القصة كما يشاء. لم تعد مهتمة بشيء... فقد انتهى الأمر.

– رأيت الليلة الماضية صورة لابن «آندرو ماكلين» في بيت «هيثر». فقد أحضرت «هيثر» صندوقا مليئا بالبطاقات والخرائط والصور التي جمعتها منذ كانت طفلة... وبينما هي تقلب الأوراق شاهدت صورة لـ«آندرو» مع ابنه عندما كان طفلاً. لم أسأل عن سبب وجود هذه الصورة في الصندوق، بل اكتفيت بإخفائها في سترتي –ثم أضاف مداعبا– أنا ماهر جدًا في النشل إذا أردت ذلك. هل تريدين رؤية الصورة؟

– كلا.

– يجب أن تريها. الشبه واضح بينكما. أستغرب فقط كيف أن جدك لم يلحظ ذلك. استدارت إليه وقد طفح بها الكيل:

– حسنا. ماذا تريد أن تفعل الآن؟

– أنا؟ –ضاقت عيناه وهو يقول– أفعل؟ لا شيء. كبتت في فمها صرخة عالية، ثم قالت بهدوء:

– لا تعطني هذا الجواب السخيف. ألست مسرورا لاكتشافك هذا؟ ابتلعت ريقها بصعوبة مصممة على ألا تضعف أمامه:

– أليس هذا ما كنت تنتظره؟ حسنا، اذهب وأخبره، فالأمر لم يعد يهمني قط. قال بهدوء:

– أعتقد أن عليك إخباره بنفسك. أما الآن فسأعود بك إلى البيت قبل أن تصابي بالبرد.

– لكن سيارتي عالقة.

– أعرف ذلك. أدار محرك السيارة وهو يقول:

– أنت غير قادرة على القيادة الآن، وسأعود غدا مع «لوري» لإحضارها. انفجرت في وجهه في محاولة لتأخير العودة:

– إنه يكرهك. بدا مندهشا وهو يسأل:

– هل يكرهني فعلاً؟ هل أخبرك لماذا؟

– أجل.

– ماذا قال؟

www.liilas.com

– لن أخبرك، بل لن أناقش أي شيء معك.

– إذا أخبرك عن شقيقته فلا شك في أنه لوّن القصة قليلا، لذلك سأحكي لك قصتي أنا، وبعد ذلك أنت حرة في تصديق الجانب الذي يعجبك، وأؤكد لك أنني غير مهتم بما ستصدقين. أطفأ محرك السيارة وتابع قائلاً:

– القصة سهلة بحيث تبدو غير معقولة، لكنها الحقيقة كاملة. لقد أعجبت شقيقة «لوري» بي. صحيح أنها فتاة لطيفة. لكنني لم أعجب بها شخصيًا، مما أدى إلى غضبها مني وحقدها عليّ لكونها مدللة ومغرورة؛ لذلك أخبرتْ أخاها بأنني حاولت التحرش بها، فما كان منه إلا أن تصدى لي في إحدى الليالي وحاول ضربي. لم أعرف حينئذٍ سبب غضبه، ولكني –لسوء حظه– أعرف الكثير من الجودو... وهكذا واجهته وتغلبت عليه دون أن أؤذيه. فقط دافعت عن نفسي وأجبرته على إخباري بسبب غضبه. لم يصدقني عندما أكدت له أنني لم أقترب من أخته قط. ولا شك في أن كبرياءه انجرحت؛ لأنني اكتشفت فيما بعد أنه بطل هاوٍ في الملاكمة في هذه المنطقة، وهذا ببساطة هو سبب عدم إعجابه بي. وبعد ذلك حزمت شقيقته حقائبها ورحلت إلى أضواء المدينة في «أبردين» حيث يمكن أن تجد ما يناسبها.. وهنا تنتهي قصتي.

أدار محرك السيارة مجددا، في حين ظلت «فانيسا» صامتة. لقد صدقت قصته، كما أن الحديث عن شقيقة «لوري» ساعدها للحظات على نسيان القصة الأساسية التي تدور حولها شخصيًا. نظرت إليه وهو يقود السيارة في الممر الذي يوصل إلى الطريق العام، فشعرت باضطراب شديد: كيف يمكن أن تحب وتكره الإنسان ذاته في الوقت نفسه؟ يجب أن يكون الأمر مستحيلاً، لكنها تحبه وتكرهه في آن واحد. قبعت «فانيسا» في مقعدها منهكة، وألقت رأسها إلى الخلف وهي تحس بجوع كبير. لقد وعدها «كال» بأنه لا ينوي إخبار أحد عن حقيقة شخصيتها، وهي تميل إلى تصديقه. وفجأة عادت إلى ذهنها صورة الرسالة القابعة في غرفتها، وتذكرت أن عليها الرحيل في الصباح الباكر. سألته بهدوء وتعاطف:

– هل يمكن أن تحضر سيارتي هذا المساء، فهي غير مقفلة؟

– المنطقة آمنة هنا –ثم التفت إليها مبتسما– على كلٍّ سأحضرها الليلة، فلا تقلقي.

– شكرا لك. ظل هناك شيء واحد، يجب أن تحصل على مفاتيح السيارة حتى تغادر البيت باكرا.

– وهل يمكن أن تترك لي المفاتيح في البهو عندما تعود، فقد أكون نائمة؟

– كما ترغبين، فأنا لن أضيعها. لم تشأ أن تقول له إنها لم تفكر في هذا الأمر... وهكذا أمضيا القسم الأخير من رحلة العودة صامتين. أوقف «كال» السيارة أمام الباب الأمامي، وفتح الباب لـ«فانيسا» قائلاً:

– هيا إلى الداخل. سأطلب من السيدة «بانكس» أن تجهز لك العشاء بعد أن أبلغ... السيد «ماكلين» أنك عدت بسلام. سأقول له إن سيارتك علقت في الوحل وإنك حاولت إخراجها بنفسك. راقبته وهما يصعدان إلى البهو الداخلي. لا شك في أنه عنى شيئا عندما ختم كلامه بالقرب من السيارة قائلاً بنعومة واضحة:

– هذا كل ما سأقوله له.. أما الباقي فمن مسؤوليتك أنت يا«فانيسا». ودخلا معا. عبرت «فانيسا» القاعة متمهلة باتجاه السلالم. وكانت من التعب بحيث اضطرت إلى الاستناد إلى الجدار. بذلت جهدا كبيرا في تبديل ملابسها والاستحمام واللجوء إلى دفء السرير. لم تجرؤ على مباشرة حزم حقائبها خوفا من أن تكشفها السيدة «بانكس»، لكنها ستفعل ذلك فور الانتهاء من عشائها... فهي تحتاج إلى استجماع قوتها إذا ما أرادت الرحيل باكرا. كان النعاس على وشك أن يغلبها عندما سمعت قرعا على الباب.. جلست في سريرها وقالت:

– ادخلي. لم تكن السيدة «بانكس»، بل كان «كال» حاملاً صينية الطعام. فاجأها منظره فسحبت الغطاء إلى كتفيها ونظرت إليه باستنفار وقلق.

– لا تضطربي.. فأنا لا أنظر إليك –ثم أضاف مبتسما– كادت السيدة «بانكس» أن تطردني من المطبخ؛ لأنها مشغولة بصنع قالب من الجاتو، لذلك تبرعت بإحضار الطعام بنفسي. وضع الصينية على ركبتيها بعناية، ثم نظر إليها وكأنه يريد أن يقول شيئا.. لكنه استدار واتجه نحو الباب. قال وهو يغادر الغرفة:

– تصبحين على خير يا«فانيسا».

– تصبح على خير أيضا. ثم أضافت بعد أن أغلق الباب:

– وداعا يا«كال». انتهى الأمر. لن تراه مرة أخرى أبدا. تنهدت بعمق... وبدأت في تناول طعامها. تأخر النوم في المجيء إلى عينيها... وعندما جاء كان متقطعا ومضطربا ومليئا بالأحلام والكوابيس المزعجة التي أيقظتها مرات عدة. نهضت من فراشها بعد أن أرعبها كابوس رأت نفسها فيه ضائعة في غابة كثيفة الأشجار وشخصًا غريبًا يلاحقها. لم تستطع أن ترى ملامحه، فقط ظلت تسمع صوتا يتردد باستمرار: «فانيسا».. «فانيسا». كان جو الكابوس مرعبا وخانقا بحيث وجدت صعوبة في العودة إلى النوم؛ لذلك تسللت من سريرها واقتربت من الساعة لتعرف الوقت دون أن تضيء النور خوفا من أن يراها أحد. كانت الساعة حوالي الخامسة صباحا، نظرت إلى السرير الدافئ وتمنت لو تعود إليه، لكنها تعرف أن النوم سيغلبها إذا فعلت وبالتالي ستفوتها فرصة الهرب؛ لذلك يجب أن تتحرك الآن. كانت حقيبتاها معدتين ومخبأتين في الحمام بانتظار الرحيل. عليها فقط أن ترتدي ملابسها وتأخذ مفاتيح سيارتها... وتهرب. وبالتأكيد يجب ألا تنسى ترك الرسالة على الصينية لتجدها السيدة «بانكس» في الصباح. وبهدوء بالغ ارتدت فستانا تركته للرحلة عندما حزمت حقيبتيها، ثم وضعت الرسالة على الصينية وقلبها يعتصر ألما من جراء إحساسها بالحزن العميق؛ لأن الرسالة هي آخر خطوة في هذه الرحلة التعيسة. تسللت على رؤوس أصابعها وهي تحمل الحقيبتين، وعندما وصلت إلى البهو الداخلي وضعت إحداهما على الأرض لأخذ مفاتيحها الموضوعة على الطاولة. لقد صدق «كال» في كلامه، فها هي المفاتيح موجودة في المكان المتفق عليه. شهقت «فانيسا» بالدموع المكتومة وهي تفتح الباب. لم يحدث قط أن أغلق أهل البيت الباب الخارجي. وقد صدمتها هذه المسألة عندما وصلت إلى «دينستون هاوس»، لكنها تشعر الآن بالارتياح لذلك. خرجت وأغلقت الباب بهدوء، ثم حملت حقيبتيها وسارت نحو موقف السيارات. في الخارج، صدمها الهواء البارد الرطب في حين كان الضباب يغطي العشب والأشجار والبيت كله. ارتجفت

باضطراب وهي تلقي نظرة الوداع على البيت. فلقد كان نائما مثل الناس الذين ينامون فيه. استدارت وحثّت خطاها نحو موقف السيارات. وخوفا من أن يسمع أحد وقع قدميها على حصى الممر، انتقلت للسير على العشب المجاور وظلت عليه حتى الأمتار القليلة الأخيرة. لا شيء يتحرك في البيت، حتى ستائر المطبخ ما زالت مغلقة والأضواء مطفأة. وضعت حقيبتيها في المقعد الأمامي واستدارت إلى مقعد القيادة وأغلقت الباب بهدوء ثم أدارت مفتاح المحرك. زأر المحرك عدة مرات دون أن يتحرك. وبقلق شديد كررت المحاولة مرة أخرى، ولكن شيئا لم يتغير. هل البرودة هي السبب؟ همست لنفسها بغضب: «اللعنة على هذا الحظ». هل كان من الضروري أن يحدث ذلك الآن؟ فتحت الغطاء وخرجت بهدوء لتتفحص المحرك. حاولت جهدها ألا تصدر أية أصوات. رفعت الغطاء وألقت نظرة شاملة دون أن تدري فعلا عما تبحث، باستثناء حدس يقول لها إن شيئا ما غير طبيعي. إنها تعرف بعض المعلومات العامة عن المحرك، وقد أكدت لها نظرتها العابرة أن كل شيء في مكانه. كانت على وشك أن تعيد الغطاء إلى مكانه عندما لاحظت أن إحدى مضخات الوقود غير محكمة الربط، ولما تفحصتها وجدت المضخة الأخرى غير محكمة أيضا مما زاد في شكوكها. ولما رفعت غطاء توزيع الوقود وجدت أن المضخة نفسها غير موجودة. وعرفت على الفور المسؤول عن هذه اللعبة القذرة. إنه «كال» بالتأكيد. فقد جرب هذه اللعبة بعد إحدى السهرات على سبيل المزاح، عندما أخفى المضخة من سيارتها بحيث اضطرت إلى مرافقته في سيارته عائدين إلى البيت. قبلت المزحة في المرة الأولى، وضحكت كثيرا عندما أخبرها «كال» بالحقيقة على العشاء في اليوم التالي. أما الآن فالمسألة تختلف، ولا شيء فيها يثير الضحك. أغلقت الغطاء بهدوء وعادت مسرعة إلى البيت. وبما أنه أخذ المضخة من سيارتها فستذهب إليه فورا لاستعادتها منه، والأرجح أن يكون محتفظا بها في غرفته. لكن لماذا؟ قلبت هذا السؤال في ذهنها وهي تركض على العشب عائدة إلى البيت الذي ودعته قبل قليل. كانت منزعجة جدًا، وكلما اقتربت من البيت تحول حذرها إلى غضب شديد. فتحت الباب بسرعة ثم أغلقته

بشدة وركضت باتجاه السلالم. كانت تحس بموجة عارمة من الضيق في صدرها وبالنار تشتعل في عينيها. كيف يجرؤ هذا الرجل العنيد على التصرف معها بهذا الشكل؟ وصلت إلى غرفة نومه... ترددت لحظات قبل أن تفتح الباب وتدخل عليه بقوة. كان «كال» غارقا في نومه ولم يظهر منه سوى شعره الأسود الفاحم، في حين امتدت يده اليمنى خارج الغطاء الدافئ. نظرت «فانيسا» إليه وهي تفكر فيما يجب أن تفعله الآن. ولم يستمر ترددها طويلاً، إذ انحنت إليه وهزته بعنف. استيقظ على الفور وفتح عينيه واسعا وهو ينظر إليها باستغراب شديد. ثم قال بصوت مازال ناعسا:

– ما الأمر؟ ماذا جرى؟ قالت بحزم:

– أين هي؟ حاول أن يمسح عن وجهه آثار النعاس ثم جلس في مكانه، ونظر إلى الساعة صارخا:

– يا إلهي.. هل تعرفين كم الساعة الآن؟

– أجل. أين الضخة التي أخذتها من سيارتي؟ تنهد بعمق وعلى وجهه تعابير الاعتراف باللعبة:

– إذن هذه هي المسألة؟

– أجل. هذه هي. شدت قبضتيها بقوة وجاهدت لتمنع نفسها من ضربه، فالأمر لن يعود عليها بأية فائدة، ومن الأكيد أنه سيرفض إعطاءها المضخة بعد ذلك. هدأت نفسها وقالت:

– أرجوك أن تعطيني إياها. كان «كال» قد استيقظ تماما الآن وجلس في السرير بشكل مريح. نظر إليها ثم هز رأسه وقال:

– لا...

– ولم لا؟

– لأنك ستهربين بعد ذلك. قاطعته بغضب:

– وماذا يعنيك في هذا الأمر ؟

– يعنيني كثيرا. فأنا لن أسمح لك بالهرب مثل... قاطعته مرة أخرى:

– اذهب إلى الجحيم أنت وأفكارك. ثم استدارت قليلاً في محاولة لكبت جماح

غضبها المتزايد. وفجأة لمحت مفاتيح سيارة على الطاولة.. إنها مفاتيح سيارة «الجاجوار».. ودون أن تفكر فيما تفعل اختطفت المفاتيح غير عابئة بأن ذلك قد يعتبر سرقة. ولم لا؟ فهو الذي أخطأ في الأساس. قالت:

– إذًا سآخذ سيارتك، فوداعا، سأكتب إليك في وقت لاحق لإبلاغك عن المكان الذي ستجد فيه سيارتك. استدارت وخرجت راكضة من الغرفة، ثم أسرعت في الممر نزولاً إلى السلالم باتجاه القاعة وهي تدعو ربها ألا ينهض «كال» ويلحقها. ركضت من الباب باتجاه الممر غير مهتمة بصوت الحصى المبعثر تحت قدميها، فقد انتهى الأمر الآن. أطلقت العنان لساقيها مدفوعة بالخوف واليأس. ليس هناك الكثير من الوقت. عليها أولاً أن تنقل حقيبتيها من سيارتها إلى «الجاجوار». فسيارة «كال» قريبة من سيارتها والأبواب كلها مشرعة، فقط عليها أن ... وصلت إلى الموقف وأسرعت بفتح باب سيارتها وانحنت لترفع الحقيبتين عندما وقع عليها ظل شخص ما. رفعت عينيها لتجد «كال» واقفا بالقرب منها وهو حافي القدمين. تنفس بعمق وهو يقول:

– إنك بالفعل قادرة على الهرب. انتصبت واقفة وقد أسقطت من ذهنها كل شيء ما عدا الهرب من هذا الرجل. قالت وهي ترفع الحقيبتين:

– ابتعد عن طريقي فورا.

– لا شك في أنك تمزحين. ضعي الحقيبتين وهيا إلى البيت بهدوء فقد انتهى زمن المرح والألعاب يا حبيبتي. لم تنتبه للكلمة الأخيرة التي استعملها، فقد كان يشد على يديه القويتين اللتين انتزعتا الحقيبتين منها. وعند هذا الحد طفح الكيل بها وأخذ صدرها يغلي كمرجل، وبلا وعي هجمت عليه بكلتا يديها، أما هو فقد أرخى الحقيبتين من يديه وأطلق ضحكة مجلجلة ثم أمسك بها وجمدها في مكانها.

– لقد حذرتك مما سيحدث لك إذا ما أقدمت على ضربي. ولدهشتها البالغة لف حولها ذراعيه وعانقها. وبدا لـ«فانيسا» أن الزمن قد توقف وأن الكون كف عن الدوران وأنهما وحدهما في هذا العالم الواسع. وفجأة انتهى العناق وابتعدا عن بعضهما البعض... وسادت لغة العيون بينهما. كان وجه «كال» داكنا في

www.rewity.com

ذلك المكان المعتم، أما وجه «فانيسا» فكان ساكنا وهادئا. تكلم «كال» بهدوء خوفا من أن يحطم السكينة المسيطرة، فقال:

– «فانيسا»... آه يا«فانيسا». ماذا أفعل بك الآن؟ خرج صوتها مرتجفا:

– دعني أذهب يا«كال»، دعني أذهب فورا. همس بنعومة فائقة:

– لا.. ليس الآن.. وليس فيما بعد.. هيا ادخلي إلى السيارة فأنت ترتجفين. لم تستطع مقاومته هذه المرة. جلس إلى جانبها وأدار جهاز تدفئة السيارة ثم وضع ذراعه حول كتفيها:

– لا تتشاجري معي يا«فانيسا» فأنا لا أستطيع احتمال ذلك.

– لست أفهم.. لست أفهم ما تقصد. وتابعت وقلبها يخفق بشدة:

– نحن لا... أنا أكرهك وأنت تكرهني.

– لا. هذا غير صحيح. وتابع كلامه وهو يداعب خدها برفق:

– كنت قادرة دائما على إزعاجي أكثر مما تتصورين... ولم أدرك السبب إلا في الليلة التي اعتقدت أنك هربت فيها... يا الله، لا يمكن أن تتصوري مشاعري عندما أخبرني «لوري» بهربك واعتقدت فعلاً أنك رحلت. وقتئذٍ عرفت... عرفت ماذا أشعر نحوك وعرفت ماذا تشعرين نحوي، فلا تحاولي النفي الآن.

– أنت لست سوى حيوان مخادع. خرج صوتها ضعيفا هامسا، لكنه وصل إلى سمع «كال»، ففحك طويلاً.

– حيوان مخادع؟! يعجبني هذا الكلام. وفي الحقيقة أنا لا أبالي بالأوصاف التي تنعتينني بها. لقد رأيت كل شيء في عينيك الليلة الماضية، ولا يمكنك إخفاء الواقع يا«فانيسا». ازدادت خفقات قلبها وهي تنظر مباشرة إلى عينيه. وعندما رأت مشاعر الحب فيهما مدت يدها تلامس وجهه القاسي.

– آه يا«كال». أرجوك ساعدني. أنا هاربة من... اعتراف قاس جدًا، ولكن زمن الأكاذيب قد انتهى. لم تعد قادرة على اختلاق القصص، على الأقل ليس الآن وليس معه بالتحديد. تابعت كلامها قائلة:

– جئت إلى هنا لأعرف جدي على حقيقته. فبعد الذي أخبرني به والدي

كرهت جدي، وأتيت؛ لأنني عرفت أنه يبحث عن حفيدته. وكنت سأجعله يحبني ثم... ثم أرحل وأتركه وحيدا.

– لا ترحلي. لست مضطرة. همست بحدة:

– بلى، يجب أن أرحل؛ لأنني أكره نفسي، يجب أن أرحل. وأنت ستكرهني أيضا بعد أن أنتهي من رواية قصتي. لقد التقيت جدي وبدأت أحبه.. قطعت كلامها فجأة وأغرقت رأسها بين كفيها عندما داهمتها الدموع المنهمرة. أحست بيد «كال» تمتد إلى رقبتها وتلامسها بلطف ومحبة. لم تعد تستطيع الاحتمال، وبحركة غريزية استدارت ودفنت رأسها في صدره، في حين احتضنها هو بذراعيه وراح يهدهدها كطفل صغير.

– لا تبكي يا حبيبتي. أرجوك لا تبكي.

– لا أستطيع.. لا أستطيع.

– اسمعي يا«فانيسا». ولكنه قبل أن يكمل أخذ نفسا عميقا وصمت للحظات بحيث توقفت «فانيسا» عن النحيب:

– اسمعي. إنه يحتاج إليك. ألا تلاحظين ذلك. إنه يحتاج إلى وجودك، وهربك من حياته عمل قاس للغاية. أنت ستظلين هنا حتى لو اضطررت إلى استعمال القوة. ستبقين هنا وسنرى جدك معًا ونخبره بالحقيقة. ردت بصوت تخنقه العبرات:

– لا.

– بلى. أنا أحبك أيتها المجنونة ولن أتركك ترحلين الآن. فاجأتها العبارة، فأبعدت رأسها عن صدره وقالت:

– ماذا؟

– قلت إنني أحبك. فهل أنت عمياء بحيث لا ترين مشاعر الحب في عيني؟

– أنت..! ولكن ماذا عن «هيثر»؟

– «هيثر»؟ لقد حولتني إلى مجنون في غضون ستة أشهر فقط. فهي لا تهتم بشيء إلا بنفسها وبمظهرها الخارجي. إنها تصلح للقاءات موسمية فقط، أما أنت يا جميلتي فتستطيعين تجاوزها في كل شيء حتى دون أن تحاولي. ولم

تحر «فانيسا» جوابا على الرغم من عشرات الأفكار التي تراودها الآن، وهكذا تابع كلامه وهو يحكم ذراعه حول كتفيها وكأنه يطمئن إلى أنها لن تهرب مرة أخرى.

– أنت لن ترحلي عني بعد اليوم، إلا إذا أردت أن ألحق بك أينما كنت.

– لا. عرفت أنني أحبك مساء أمس في العشاء. ابتسمت وهي تتذكر المناسبة وأضافت تقول:

– وبالتحديد عندما تناولنا الحساء. نظرت إليك حينئذٍ و... صعقني الشعور بشكل مفاجئ.

– يا إلهي. هل هذا هو السبب في انقطاع شهيتك عن الأكل؟ –تابع ضاحكا– أهذا هو التأثير الذي أتركه عليك؟ اتسعت ابتسامتها وهي تقول:

– أعتقد ذلك –ثم أضافت بنعومة– آه يا«كال». لماذا حدث هذا؟ وكيف؟ لم يكن يحتاج إلى سؤالها عما تقصد:

– لأن بعض الأشياء –يا صغيرتي المجنونة– تحدث هكذا. هل تذكرين يوم دخلت المكتبة وعرفت أن «لوري» عانقك؟ حسنا، لقد جاهدت نفسي كثيرا كي لا أهجم عليه. لم أستطع أن أفهم سبب غضبي... لعليّ كنت غبيًا، ثم أخذ هذا الشعور ينمو ويزداد وأنا أحاول طرده؛ لأنني كنت أعرف أنك مزورة إذا صح التعبير. كان الشك يكبر يوما بعد يوم دون أن أفهم السبب، وكانت تنمو معه رغبتي في احتضانك والبقاء إلى جانبك. والحقيقة أنني كدت أفعل ذلك في أحد دروس الجودو. وكم كنت حينئذٍ أحتاج إلى السيطرة على النفس التي تبنيها رياضة الجودو. سألت بنعومة:

– لقد كنت قاسية معك، أليس كذلك؟

– كيف يمكن أن أوافق على ذلك؟ أعتقد أنني كنت فظًا معك يا عزيزتي، على كلٍ انتهى الأمر، أعني أننا نعرف حقيقة مشاعرنا. آه أيتها الحبيبة «فانيسا» كم أنا سعيد لأنني أخفيت المضخة من سيارتك!

– صحيح. على فكرة، أين وضعتها؟ سألته بلهجة آمرة، لكن عينيها لم تلتمعا بالغضب هذه المرة.

– إنها مخبأة في صندوق صغير موضوع في مكان ما هنا بحيث لا يمكنك اكتشافه مهما بحثت. فقد انتابني إحساس بأنك ستحاولين الهرب، وأنا لم أتوقع أن تقتحمي غرفتي. يا لك من امرأة عصبية جدًا! همست بحياء:

– أنا آسفة يا حبيبي.

– يجب أن تغيري تصرفاتك، فأنا لا أقبل مثل هذا الموقف من زوجتي.

– ماذا؟

– هل هذا كل ما عندك لتقوليه؟

– أجل... وحتى أستعيد أنفاسي المتقطعة. لست متأكدة مما سمعت! نظر إلى ساعته وقال:

– تعالَيْ يا حبيبتي، إنها السادسة تقريبا. ما رأيك لو نتسلل إلى المطبخ ونرتشف بعض القهوة المنعشة، فالسيدة «بانكس» لن تستيقظ قبل الساعة السابعة؟

– لا بأس. ولكنها أرادت أن تضيف شيئا آخر الآن وقبل أن يغادرا السيارة.

– «كال»...

– نعم!

– أرغب في رؤية جدي على انفراد. أرجوك، فأنا أريد إبلاغه الأمر بنفسي.

– هل أنت متأكدة.

– نعم. يجب أن أخبره بنفسي. أظنك تفهم الوضع! ابتسم لها وهما يسيران عائدين إلى البيت. كانت عيناه ووجهه وكل ملامحه تنطق بالحب العميق:

– أنا أفهم موقفك تماما يا حبيبتي، لكنني سوف أنتظرك. لا تضطربي، يكفي أن تخبريه بطريقتك الجميلة الطيبة، وسيفهم على الفور.

– أتمنى ذلك. أغلقت عينيها برهة ثم تابعت:

– لقد تركت له رسالة مع أن الكتابة كانت صعبة. أما الآن، فأنا سعيدة لأنك منعتني من الرحيل... لا يمكن أن تتصور كم أنا سعيدة! وضع ذراعه على كتفيها بحنان، ثم أشار إلى الأفق قائلاً:

– هل ترين ذلك التل البعيد؟ نظرت «فانيسا» إلى بعيد فشاهدت تلاً كبيرًا

تكسوه الثلوج. أما هو فتابع يقول:

- سأظل أحبك ما دامت الثلوج موجودة على قمة هذا التل. ابتسمت بدلال وقالت:

- إنها لا تذوب أبدا... إنها هناك إلى الأبد.

- أجل.. إن حبي لا ينتهي أبدا.. وضمّها بين ذراعيه وغابا في عناق طويل.

WWW.REWITY.COM
مـــر مـــوريـــة

تمت بعون الله